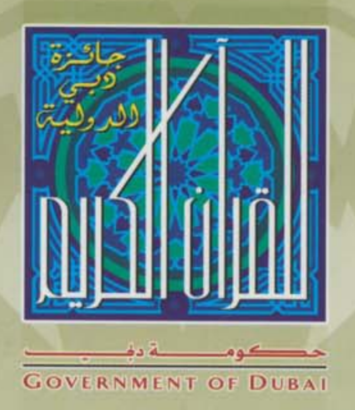
جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية
(٤)





تنزيل الآيات على الواقع عند المُفَسِّرين

دراسة وتطبيق



الدكتور
عبدالعزيز بن عبد الرحمن الضامر



جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية
(٤)



تنزيل الآيات على الواقع عند المُفَسِّرين

دراسة وتطبيق

الدكتور
عبدالعزيز بن عبد الرحمن الضامر

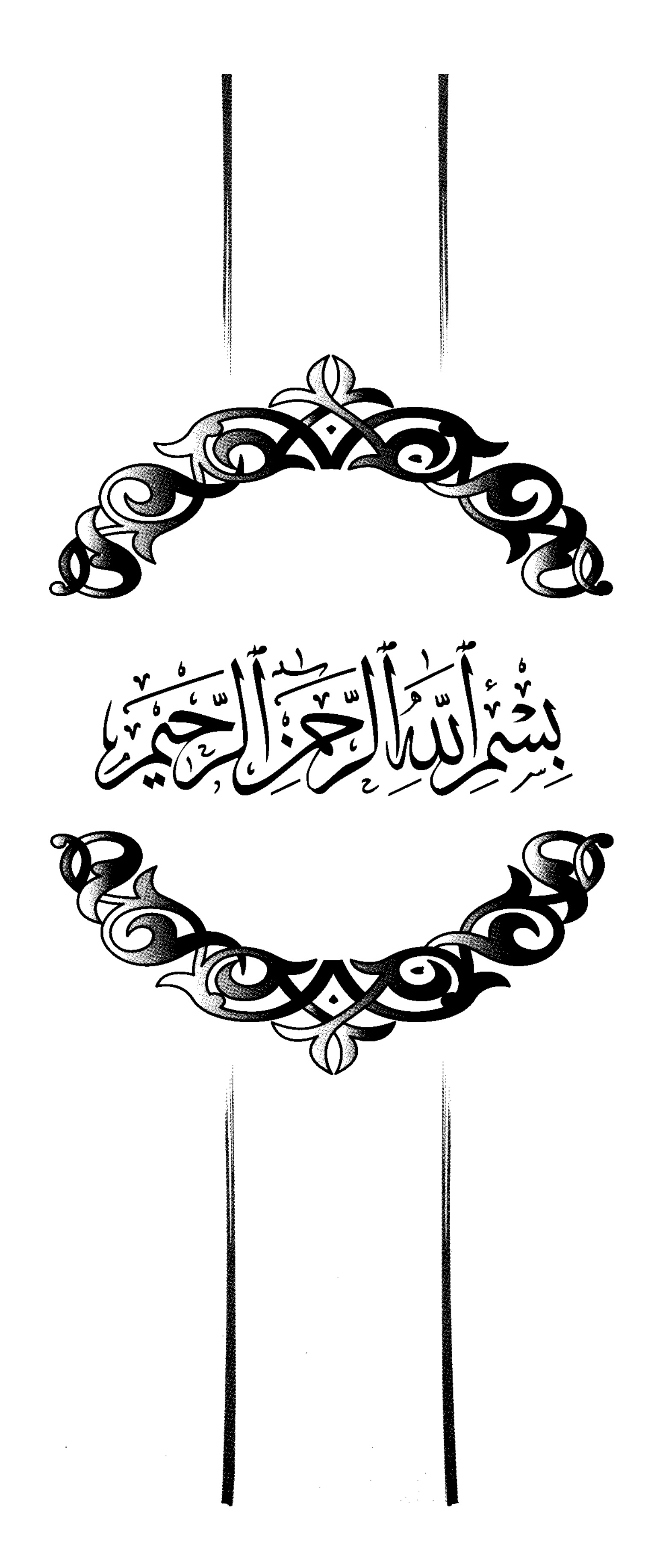


الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات
رقم (أ ع ش / ١٥٠٣/٢٠٠٦م)

سلسلة مُحَكَّمَة تصدرعن
جـــائـــزة دبـــي الـــدوليـــة للقـــرآن الكـــريم
DUBAI INTERNATIONAL HOLY QURAN AWARD
ص.ب: ٤٢٠٤٢ دبي - ا.ع.م.
هاتف: ٢٦١٠٦٦٦ ٩٧١٤+ ، فاكس: ٢٦١٠٠٨٨ ٩٧١٤+
موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae
البريد الإلكتروني: quran@eim.ae




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله، رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد نزل القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، ونطقه، وتجويده، وترتيبه، وتنظيمه، وقد تكفل الله بحفظ آياته وكلماته من التحريف والتغيير والتبديل فقال في سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ جعله الله المعجزة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، فأعجز البشر أن يأتوا بسورة من مثله فقال في سورة البقرة﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وقد تناول العلماء هذا الكتاب العظيم بالدراسة والتمحيص، فاستخرجوا منه الكنوز الثمينة، وأسسوا في ظلال آياته قواعد علومهم، وقد أظهرت كثير من الاكتشافات العلمية المعاصرة حقائق مذهلة سبق القرآن إلى ذكرها أو الإشارة إليها، ولا بد من أن تجد التطابق بين ما قاله الله وما خلقه، كما قال تعالى في سورة فصلت ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ويسر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم أن تسهم في خدمة هذا القرآن العظيم، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية سلسلة الدراسات القرآنية تعميماً للثقافة القرآنية وإن اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم لتقدم شكرها إلى مؤلف الكتاب وإلى كل من ساهم في إخراجه وطبعه ونشره وتوزيعه. سائلين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل في صحيفة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي وراعي جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم



قال ابن قيّم الجوزية - رحمه الله - في شأن القرآن:

" ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوعٍ وفي قومٍ قد خَلَوْا من قبل لم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرٌّ منهم أو دونهم، وَتَنَاوُلُ القرآن لهم كتناوله لأُولئك ".

مدارج السالكين (١/٣٤٣)



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد ورد عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: " انطلق بنا إلى أُمِّ أيمن (١) نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورُها فلمَّا انتهيا إليها بَكَتْ !! فقالا لها: ما يُبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أنْ لا أكونَ أعلم أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ ؛ ولكن أبكي أنَّ الوحي قد انقطع من السماء... " (٢).

لقد كانت هذه العبارة الذهبية من أمِّ أيمن رضي الله عنها دليلاً على أهمية الوحي في حياتهم.

كيف لا وهو المُعالج لقضاياهم، والمُشرِّعُ لأحكامهم، وهو الروح الذي يسري في أجساد المؤمنين، فيُنعِشُ نفوسهم ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الشورى: ٥٢).

---

(١) **هي**: بركة بنت ثعلبة بن النعمان، مولاة النبي صلى الله عليه وسلم وحاضنته، وكان ﷺ يُحبها ويسميها " يا أُمَّه "، وإذا نظر إليها يقول: " هذه بقية أهل بيتي "، توفيت في خلافة عثمان رضي الله عنه. يُنظر: الإصابة لابن حجر (٣٥٨/٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (نووي ٨/١٦) حديث رقم (١٠٣)، عن أنس رضي الله عنه.



وبانقطاع هذا الوحي، وفقدان الواسطة الذي كان له الأثر البالغ في نشر تعاليم الدين الحنيف، لجأ الصحابة رضي الله عنهم إلى وصيته ﷺ حين قال لهم: " تركت فيكم أمرين لن تَضِلُّوا ما مَسَّكْتُم بهما: كتابَ الله وسنة نبيه " (١).

فأقبلوا على القرآن وأخذوا ينهلون من معينه العذب، ويستقون من نبعه الفيَّاض العلم والخير والبركة.

وبهذا العمل أصبحوا مصاحفَ تمشي على الأرض، وترجمةً عمليةً للنص القرآني فَوَضَّحُوا بذلك للناس منهج التعامل مع القرآن تلاوةً وفهماً وعملاً، فهو ليس للسماع والتطريب، أو التعليق والتبريك، وإنما هو منهج الحياة.

ولا أدلَّ على ذلك من قول أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله حينما قال: " حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يُخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعَلَّمنا القرآن والعمل جميعاً " (٢).

ومن هنا قويت شوكة المجتمع المسلم، وعزَّ أمره، فأصبح شمساً يتبدد نورها على الحياة، ونهراً صافياً لا تُكدِرِه الدلاء يروي منه كل من يَرِد !!.

ثُمَّ ما الذي حدث بعد هذا ؟!.

" تخلى المسلمون شيئاً فشيئاً عن ذلك القرآن، فتساقطت دولهم واحدة بعد الأخرى، وعم الجهل، وفشت البدع والمنكرات، وكثر الفساد، وقلَّ الناصح وندر المصلح.

والقرآن هو القرآن لا زال يزخر بكنوزه ويدعو الناس إليها، ولكن الناس كانوا في غفلة، وكان حجاب الشهوات يضرب أطنابه لحجب تلك الكنوز " (٣).

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر (٦٨٦/٢)، والحاكم في المستدرك (١٧٢/١) حديث رقم (٣١٩)، وحسَّنه الألباني في رسالة (التوسل) ص (١٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧٤/١).

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، للدكتور فهد الرومي ص (٣٨٤) بتصرف.



وهكذا كُلَّما جَدَّ الزمان وبَعُد الناس عن عصر النبوة تَجَلَّت لهم أقضيةٌ وسُنَنٌ لا تقف ولا تكل ولا تبلى.

فاحتاجوا إلى من يستنطق الآيات، وينـــزلُها على واقعهم المُعاصر فيكشف لهم لِثَام تلك الوقائع والأحداث، وذلك برد النظير إلى نظيره، وإرجاع الجزئيات إلى كُلِّياتها.

ومن هُنا تنطلق قضية تنـــزيل الآيات على الواقع، التي هي محور هذا البحث، فيا ترى الباعث إلى دراسة مثل هذه القضية ؟!.

١- أني لم أجد أحداً من المتقدمين والمتأخرين أفرد لتأصيل هذا الموضوع رسالةً أو كتاباً مستقلاً، خلا شذرات يسيرةٍ، وإلماحات سريعة تَمَّ التقاطها من بطون الكتب والرسائل.

٢- حاجة الناس إلى هذا الجانب في التفسير، لا سيَّما في هذه العصور التي كثُرَت فيها المستجَدَّات، وفَشَت النوازل والبلاءات.

٣- إغلاق الباب أمام من يتجرأ على تنـــزيل الآيات على الواقع في غير موضعها، تبعاً لجهله، أو تعصباً لهواه، وذلك ببيان أبرز الضوابط والشروط.

٤- معرفة حال المُفَسِّر، وعلاقته بواقعه الذي يدور من حَولِهِ.



خطة البحث:

وقد اتخذتُ لهذا الموضوع خُطةً تُعينُ على السير فيه تحتوي على مُقدِمة، وتمهيدٍ وقسمين، وخاتمة:

- المقدمة.
- تمهيد (خصائص القرآن).

القسم الأول: الدراسة.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تنـــزيل الآيات على الواقع: تعريفه، وعلاقته ببعض مسائل علوم القرآن. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريفه.

المبحث الثاني: علاقته بمسألة (الحكمة من نزول القرآن منجماً).

المبحث الثالث: علاقته بمسألة (صيغ أسباب النـــزول المحتملة).

المبحث الرابع: علاقته بمسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

الفصل الثاني: تنـــزيل الآيات على الواقع: نشأته، وأنواعه، وفوائده، وحُكمه.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: نشأته.

المبحث الثاني: أنواعه.

المبحث الثالث: فوائده وحاجة الناس إليه.

المبحث الرابع: حُكمه وضوابطه.



الفصل الثالث: نماذج من تنـــزيل الآيات على الواقع عند المُفَسِّرين القُدامى.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تنـــزيل الآيات على الواقع عند ابن العربي في (أحكام القرآن).

المبحث الثاني: تنـــزيل الآيات على الواقع عند القُرطبي في (الجامع لأحكام القرآن).

المبحث الثالث: تنـــزيل الآيات على الواقع عند ابن تيمية في تفسيره لبعض سورة الأحزاب.

القسم الثاني: التطبيق.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: محمد رشيد رضا وتفسيره (المنار).

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة عن حياته.

المبحث الثاني: منهجه في تنـــزيل الآيات على الواقع.

المبحث الثالث: أبرز القضايا في عصره، وتنـــزيل الآيات عليها.

الفصل الثاني: عبد الحميد بن باديس وتفسيره (مجالس التذكير).

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة عن حياته.

المبحث الثاني: منهجه في تنـــزيل الآيات على الواقع.

المبحث الثالث: أبرز القضايا في عصره، وتنـــزيل الآيات عليها.

الخاتمة: وقد بيَّنتُ فيها أبرز النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.

الفهارس.



منهجية البحث:

وقد سار هذا البحث وفق منهجية اتخذها أثناء العمل فيه وهي الآتي:

أولاً: الآيات القرآنية.

عَزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر رقم الآية في صُلب البحث حتى لا أُثقل الحواشي.

ثانياً: الأحاديث والآثار.

خَرَّجت الأحاديث من مَظَانِّها، فما كان في البخاري ومسلم اكتفيت بهما، وما كان غير ذلك فقد توسعت قدر الإمكان مع بيان حكم العلماء فيها.

وأمَّا الآثار فقد خَرَّجتُها من كتب التفسير المُسندة كتفسير الطبري وابن أبي حاتم.

ثالثاً: اقتصَرتُ في تنـــزيل الآيات على الواقع بما كان له صِلة بالمجتمعات، وما أوجد الله فيه من سُننٍ وقوانين.

ولم أتطَرَّق لقضايا التفسير العلمي والاكتشافات الحديثة التي اجتهد فيها كثيرٌ من الباحثين بتنـــزيل الآيات عليها ؛ لأنه موضوعٌ شائك وفيه من الطول والعرض ما يُؤهله لأن يكون رسالةً علمية مستقلة (١).

رابعاً: جعلتُ القسم الثاني من البحث عبارة عن تطبيق لقضية التنـــزيل - التي تَمَّت دراستها في القسم الأول - من خلال تفسير المنار لرشيد رضا، ومجالس التذكير لعبد الحميد بن باديس.

والسبب في اختيار هذه التفاسير دون غيرها يرجع إلى بروز قضية التنـــزيل فيها، لِمَا يُوليه أصحابها من عِناية كبرى، ودراية عُظمى.

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق للدكتورة هند شلبي، وظاهرة التفسير العلمي للقرآن للدكتور خليل أبو ذياب، والتفسير العلمي للقرآن في الميزان للدكتور أحمد أبو حجر.



وبعد..

فإني أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفّقت في اختيار هذا الموضوع، وأن يكون إضافةً جديدةً للمكتبة القرآنية.

مذكّراً بأنَّ هذا العملَ جُهدٌ بشريٌ مُعَرَّضٌ للنقص والتقصير (١)، وحسبي أني قد اجتهدت في كتابته، وصناعة أفكاره، من دون مَرجعٍ سابقٍ، أو مَصدر مُتَقدم قد تبنى الفكرة وأصَّلها، ولهذا كان ما كان !!.

فليُغض الطرف، وليُعفَ عن التقصير، فالكاتب مُستهدف، والناقد بصير ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) استدل الإمام السيوطي رحمه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) بأنَّ: " فيه العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض ؛ لأنَّ السلامة عن ذلك من خصائص القرآن ". الإكليل في استنباط التنــزيل (٢/٥٧٣).



تمهيد: خصائص القرآن

إنَّ من نِعَم الله تعالى في هذه الحياة أن جَعَلَ لِكل شيء خصائص تُميّزه وتُبيّنه عن غيره.

فجعل للإسلام خصائص تُظهر عظمته [1]، وتُبيّن روعته لكل من يعرفه أو يسمع به. وجعل لمبلغه محمد ﷺ خصائص تدل على صِدق نبوته وعظيم أمره[2].

وجعل للقرآن العظيم خصائص تُظهر إعجازه [3]، وتُبين كماله، وتنفي عنه التحريف والتزوير، وأنه الرسالة الخالدة التي بها يصلح الناس، فيهتدون إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً.

وقبل أن أدلف إلى صُلب الموضوع فإنه يجدر بي أن أُمَهِّد له بذكر شيءٍ من خصائص القرآن التي لها أوثق الصلة والارتباط بموضوع التنـــزيل.

أولاً: أنه كتاب هداية:

وذلك بأنَّ الله تعالى قد أكدَّ هذا الأمر بقوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (الإسراء: ٩)

فهو الهداية الكبرى، والغاية العظمى لإرشاد الناس إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، حيث يدلهم إلى الخير ويُباعدهم عن الشر.

وقد مَرَّ أكثر المفسرين على هذه الآية الكريمة مروراً سريعاً من غير إشباعٍ أو إفاضةٍ حولها، ومن دون الوقوف عندها وتحليلها تحليلاً يُظهر دلالات الهداية وأثرها في قلوب المؤمنين.

---

(١) يُنظر: الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي.

(٢) يُنظر: الخصائص الكبرى للسيوطي، وغاية السول في خصائص الرسول ﷺ لابن المُلَقِن.

(٣) يُنظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، وخصائص القرآن، للدكتور فهد الرومي.



سوى ما وجدته عند العلامة الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) رحمه الله في تفسيره (أضواء البيان) حيث ذكر صوراً كثيرةً من صور هداية القرآن للتي هي أقوم، وذلك في أكثر من خمسين صفحة [١].

فالقرآن نَزَلَ لإصلاح ما أفسده الناس عقائدياً وخُلقياً وسلوكياً وسياسياً واقتصادياً.. وكل أشكال الحياة فهو هداية يهدي به الله إلى صراط مستقيم.

فيهدي إلى السلوك الحسن والخُلق الجميل، وهذا واضحٌ من خلال تتبع الآيات التي حثت على قضايا الأدب والسلوك، كآيات الحث على الاستئذان، والصبر، والعفة..، وآيات النهي عن الغيبة، والتجسس، والتنابز بالألقاب، والكذب والقذف.. ونحو ذلك.

ويهدي إلى الطريق الأمثل في حَلِّ مشكلات الاقتصاد سواءً كان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات، وهذا واضح في آيات النهي عن التعامل بالربا، والحث على اكتساب المال من مصارفه الشرعية التي تُبارك للإنسان وتُرضي عنه الملك الديَّان.

ويهدي إلى كل ما تدل عليه لفظة الهداية من المعاني والدلالات التي لو وقف المفسرون على ساحلها لأخرجوا دُرراً وأصدافاً.

ثانياً: أنه كتاب الزمن:

فقد دَلَّت الآيات الكريمات من القرآن على صلاحيته في كل زمان ومكان، وأنه الحاكم في كل عصر ومِصر....

ومن ذلك قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩) وقد ذكر عددٌ من المُفَسِّرين[٢] أنَّ المراد بقوله: ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي من بلغه هذا القرآن على مَرِّ الأزمان إلى يوم القيامة.

---

(١) يُنظر: أضواء البيان (٣/٤٠٩ - ٤٥٧).

(٢) يُنظر: تفسير البغوي (٢/١٣)، والكشاف للزمخشري (٢/١١)، وتفسير البيضاوي (١/٢٩٦).



قال الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) رحمه الله: "وأُنذر به من بلغ إليه أي: كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد، كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النـــزول... " (١).

وقال ابن باديس رحمه الله: " إنَّ القرآن كتابُ الدهر، ومُعجزته الخالدة، فلا يُستقل بتفسيره إلاَّ الزمن " (٢).

وقال الدكتور / محمد دراز (٣) رحمه الله في شأن القرآن: " كتاب مفتوح مع الزمان، يأخذ كلٌّ منه ما يُسِّر له، بل ترى مُحيطاً مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد والأجيال " (٤).

ولهذا يُلاحظ أنَّ القرآن الكريم لم تُذكر فيه كثيرٌ من الشخصيات المخاطَبة فيه، لبيان صلاحيته في كل زمان ومكان ؛ وذلك لأن هذه الشخصيات رموزٌ تتعدد أشكالها وألوانها عبر مرِّ العصور والدهور.

" ومن هنا يجب أن نقف بكل قوة ضد تلك المحاولات المجترئة على الله، التي تريد أن تسلب القرآن خصيصة الخلود، وأن تُضفي على أحكامه طابع التأقيت، وهو ما يسمونه (تاريخية النصوص) حتى وجدنا من يرد قطعيات القرآن بأوهام من عنده.

كالذي زعم أن قول الله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ الآية ﴾ (النساء: ١١) – وما في معناه من توزيع أنصبة المواريث – إنما كان ذلك يوم لم يكن للمرأة استقلال اقتصادي، وكانت تابعةً للرجل، وكان الرجل قواماً عليها، أما وقد

---

(١) فتح القدير (٢/١٣٢).

(٢) مجالس التذكير ص (٣٧٧).

(٣) محمد بن عبد الله دراز، عالم أزهري، حصل على شهادة الدكتوراه من السوربون، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، توفي في باكستان سنة (١٣٧٧هـ)، ومن مؤلفاته: مدخل إلى القرآن، ودستور الأخلاق في القرآن، والنبأ العظيم وغيرها.
يُنظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٤٦)، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (٣/٤٣٨).

(٤) النبأ العظيم ص (١١١).



تعلمت المرأة وعملت، وخاضت معركة الحياة مزاحمةً للرجال بالمناكب، فلم يعد هذا الحكم ذا موضوع !....

ومثل ذلك من قال في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٥) قال: إنَّ ذلك التحريم كان لخنـــزير ذلك الزمان، الذي يألف القاذورات والنجاسات، ولا ينطبق على خنـــزير عصرنا الذي يُربى ويُغذَّى تحت إشراف صحي !.

إنَّ هؤلاء المحرفين يريدونه (قرآناً موقوتاً) بزمنٍ معين، وقد أراد منـــزله تبارك وتعالى أن يكون كتاب الزمن كله " (١).

ثالثاً: أنه كتاب شامل لأمور الحياة:

إذا كان القرآن الكريم بلاغاً لكل الناس على مَرِّ الأزمان فهذا دليل على شموله لجميع أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونحو ذلك.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨) " فيه علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر، والسعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام، وكليات السياسة والتشريع، وحقائق الحياة في العمران والاجتماع، ونظم الكون المبنيَّة على الرحمة، والقوة والعدل والإحسان " (٢).

وقد أفرد الإمام السيوطي (ت: ٩١١هـــ) رحمه الله ضمن كتابه الإتقان نوعاً من أنواع علوم القرآن وهو النوع الخامس والستون (٣) ما يدل على شمول القرآن لكل شيء، حيث أورد الآية السابقة وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩) ونصوصاً أُخرى من أحاديث وآثار تدل

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟، للدكتور يوسف القرضاوي (٧٣ - ٧٥).

(٢) مجالس التذكير ص (٣٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/٢٤).



عليها ومنها قول الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) رحمه الله: " ليست تنـزل بأحدٍ من المسلمين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها " [١].

وقد يقول قائل: إنَّ القرآن ليس فيه كل شيء ؛ بدليلِ أنَّ كثيراً من الأشياء لم نجد لها ذكراً في القرآن.

فالجواب على هذا: هو أنَّ القرآن فيه أُصول كلِّ شيء، ولو ذُكِر فيه كل صغير وكبير لأصبح في أسفارٍ ومجلدات كبار يشق حملها ومدارستها على الناس، وأنَّ هذه الأصول تشمل جميع الأشياء إمّا نصاً وإمّا دلالة ومعنى أو قياساً وهذا باب واسع لاستثمار النصوص.

وقد قال ابن بَرهان البغدادي [٢] رحمه الله: " الباري سبحانه قادرٌ على التنصيص على حكم الحوادث والوقائع، ولم يفعل، ولكن نص على أصول، ورد معرفة الحكم في الفروع إلى النظر والاجتهاد " [٣].

وقال الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) رحمه الله: " إنَّ الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدها وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعداداً لا تنحصر " [٤].

---

(١) الرسالة ص (٢٠).

(٢) **هو**: أحمد بن علي بن بَرهان - بالفتح - البغدادي، وكنيته أبو الفتح، فقيه شافعي، وأصوليٌّ بارع حتى صار يُضرب به المثل في تبحره في الأصول والفروع، تتلمذ على الغزالي والشاشي والكيا الهراسي، توفي سنة (٥٢٠هـ).
يُنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٥/١)، وشذرات الذهب لابن العماد (٦١/٢ - ٦٢).

(٣) الاجتهاد للسيوطي ص (١٦٩).

(٤) الموافقات (١٤/٥ - ١٥).



القسم الأول

تنــزيل الآيات على الواقع عند المُفسِّرين

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريفه، وعلاقته ببعض مسائل علوم القرآن.

الفصل الثاني: تنـزيل الآيات على الواقع: نشأته، وأهميته، وحكمه، ونوعه.

الفصل الثالث: نماذج من تنـزيل الآيات على الواقع عند المُفَسِّرين القُدامى.



الفصل الأول

تعريف تنـزيل الآيات على الواقع عند المُفسِّرين، وعلاقته ببعض مسائل علوم القرآن

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف تنـــزيل الآيات على الواقع عند المُفَسِّرين.

المبحث الثاني: علاقته بمسألة (الحكمة من نزول القرآن منجماً).

المبحث الثالث: علاقته بمسألة (صيغ أسباب النـــزول المحتملة).

المبحث الرابع: علاقته بمسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).



المبحث الأول

تعريف تنزيل الآيات على الواقع عند المُفسِّرين

إنَّ وضع اسمٍ لبعض المصنفات يحتاج إلى جهدٍ في التفكير، وقوةٍ في التأمل حتى يكون الاسم جامعـــاً شاملاً لمضمـــون الكتاب، مانعـــاً محترزاً من أن يدخل فيـــه مـــا ليس منه.

وبعد تدبرٍ وسؤالٍ طويل فإني آثرت أن أُسميه بـــ **(تنـــزيل الآيات على الواقع عند المفسرين – دراسةً وتطبيق)**.

وفي هذا المبحث سوف أجتهد في إيجاد تعريفٍ مناسبٍ لهذا العنوان محاولةً مني في توضيح مفرداته وبيان حده، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: تعريفه مفرداً:

(تنـــزيل): مصدر من الرباعي للفعل نَزَّلَ، وهي تدل على هبوط شيءٍ ووقوعه من علو شيئاً بعد شيء، وأصله من نَزَلَ فتقول: نَزَل الرجل عن دابته نزولا، ونَزَل المطر من السماء نزولا (١).

وعرَّف ابن فارس (ت: ٣٩٥هـــ) كلمة (تنـــزيل) بقوله: " ترتيب الشيء ووضعُه منـــزلَه " (٢).

(١) يُنظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/٨٢٧)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤١٧)، ولسان العرب لابن منظور (١١/٦٥٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/٤١٧).



إلاَّ أنَّ المعاصرين قد استخدموا في تفاسيرهم مصطلح الـــ (تطبيق) أمثال رشيد رضا، وابن باديس، وشلتوت (١)، وسيد قطب وغيرهم، ويريدون بذلك تطبيق الآيات القرآنية على الحوادث والوقائع المعاصرة لهم.

والتعبير الأول أولى لأنه يحمل معنى الـــ (تطبيق)، ولأنه يُوحي بأن آيات القرآن الكريم حيّةٌ متجددةٌ تتنـــزل في كل وقت وحين لمعالجة الوقائع والأحداث عبر مَرِّ العصور، ولأنَّ لفظ التنـــزيل يُعطي الرفعة للآيات وأنها تنـــزل من علو بحاكمية وسلطان.

(الآيات): جمع آية وتطلق في اللغة على معانٍ عدةٍ منها (٢):

١- العلامة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

٢- العِبْرَة. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

٣- الأمر العجيب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المؤمنون: ٥٠).

٤- البرهان والدليل. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم: ٢٢).

---

(١) محمود شَلتُوت، فقيه ومُفَسِّر مصري، ولد في البحيرة سنة (١٣١٠هـــ)، ودَرَس في الأزهر، ثُمَّ تولى عِدةَ مناصب، منها: عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة، ثُمَّ شيخاً للأزهر إلى وفاته سنة (١٣٨٣هـــ)، ومن مصنفاته: تفسير القرآن الكريم، والقرآن والمرأة، وهذا هو الإسلام، وغيرها.
يُنظر: الأعلام (١٧٣/٧)، ومعجم المؤلفين (٨١٢/٣ - ٨١٣)، ومعجم المفسرين لعادل نويهض (٦٦٣/٢).

(٢) يُنظر: معجم مقاييس اللغة (١٦٨/١)، ولسان العرب (٦٢/١٤).



٥- الجماعة. ومنه قولهم: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

وعُرِّفت في الاصطلاح (١): بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

"والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحي والمعاني اللغوية السالفة واضحة، لأنَّ الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هي علامة على صدق من جاء بها ﷺ وفيها عبر وذكرى لمن أراد أن يتذكر، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السموِّ والإعجاز، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته، وعلى صدق رسوله في رسالته " (٢).

(الواقع): اسم فاعل للفعل وَقَعَ، وهو يدل على سقوط شيءٍ، فتقول: وَقَعَ الشيء وقوعاً فهو واقع (٣).

والمقصود بالواقع في هذا المقام: هو عبارةٌ عن السنن الإلهية، والأفعال الإنسانية الحاصلة في الزمن المعاصر.

وهذا الواقع هو الذي يُراد تنـــزيل الآيات عليه، وتوجيهه بحسبها (٤).

(المُفَسِّرين): جمع مُفَسِّر، وهو المبيِّن والموَضِّح، يقال: فسَّر الشيء أي أبانه وأوضحه (٥).

أما اصطلاحاً فإني لم أجد أحداً وضع حداً منطقياً للمُفَسِّر سوى ما كتبه الدكتور حسين الحربي، وكذلك الدكتور مساعد الطَّيار.

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١/٣٠٢).

(٢) المصدر السابق (١/٣٠٣).

(٣) يُنظر: جمهرة اللغة (٢/٩٤٤)، ومعجم مقاييس اللغة (٦/١٣٣ - ١٣٤)، ولسان العرب (٨/٤٠٢).

(٤) يُنظر: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار ص (١١٢).

(٥) يُنظر: معجم مقاييس اللغة (٤/٥٠٤)، ولسان العرب (٥/٥٥).



فقال الأول: " هو من له أهليةٌ تامةٌ يَعرف بها مراد الله تعالى بكلامه المتعبد بتلاوته، قدر الطاقة، وراض نفسه على مناهج المفسرين، مع معرفته جُمَلاً كثيرةً من تفسير كتاب الله، ومارس التفسير عملياً بتعليمٍ أو تأليف " (١).

وعَرَّفه الثاني بقوله: " من كان له رأيٌ في التفسير، وكان متصدياً له " (٢).

والمتأمل في هذين التعريفين يلاحظ أنهما يدوران حول معنى واحد، إلا أنَّ الأول قد أصاب تعريفه شيئاً من التطويل.

فقوله مثلاً (**قدر الطاقة**): قيد غير ضروري ؛ لأنَّ كلَّ مُفَسِّرٍ لا يمكن لـــه أن يُفَسِّر كلام الله تعالى إلا بعد أن يَبذُل وسْعه قدر طاقته بالتدبر والتأمل.

وقوله (**وراض نفسه على مناهج المُفَسِّرين**): قيدٌ لا حاجة له في التعريف ؛ لأنَّ العلم بمناهج المفسرين ليس له أثرٌ في فهم التفسير، ولو أُثبت هذا القيد لخرج منه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم.

وقوله (**مع معرفته جُمَلاً كثيرةً من تفسير كتاب الله**): شرطٌ مكررٌ ؛ لأنَّ معرفة جُمَلٍ كثيرةٍ من التفسير تُعتبر من مؤهلات تفسير كلام الله تعالى الذي عَبَّر عنه في بداية تعريفه بقوله: " من له أهلية تامة في التفسير " فلا داعي لتكراره.

فكان من المناسب أن يقول: هو من له أهلية تامةٌ في التفسير، ومارسه عملياً بتعليمٍ أو تأليف.

وأما الدكتور الطيَّار فإنه قد أوجز التعريف، واختزل في طياته الكثير من المعاني، ولهذا فإني أُرَجِّحُه، وأُبيّن شيئاً من معانيه، مع إضافة قيدٍ مهم وهو الأهلية للمُفَسِّر.

فيكون التعريف كالآتي:

هو من كانت فيه أهلية التفسير، وكان له رأي فيه، ومتصدياً له.

---

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين (٣٣/١).

(٢) مفهوم التفسير والتأويل... ص (٢١٥).



فقيد الأهلية ضروريٌ جداً حتى يُضيَّق الخناق على من كان على غير ذلك، ويُمكن أن نُسميه بالمتأمل أو المتدبر أو كلمة نحوهما، دون أن يُطلق عليه لفظ المُفَسِّر ؛ لعدم توفر الأهلية فيه (١).

وكلمة (رأي): يدخل فيها الرأي بنوعيه وهما:

١- **رأي الاجتهاد**: وهـــو أن يكون للمُفَسِّر رأيٌ اجتهد في استخراجه من الآية، ولم يعتمـــد على رأي أحدٍ غيره، وهذا لا يكون إلا لمن كان لديه نظرٌ ثاقب، وتأملٌ دقيق، أمثـــال ابن عباس (ت: ٦٨هـــ)، وابن مسعود (ت: ٣٢هـــ)، ومجاهـــد بن جبر (ت: ١٠٤هـــ)، والحسن البصـــري (ت: ١١٠هـــ)، وعطاء بن أبي رباح (ت: ١١٤هـــ)، وغيرهم من مفسري الصحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم أجمعين.

٢- **رأي الترجيح**: وهو أن يجمع الروايات التفسيرية ويُرجِّح منها رأياً يكون هو المترجح عنده بناءً على خبرته الفاحصة، ومعرفته الدقيقة في قواعد الترجيح، وقدرته في التمييز بين الأقوال، وبيان صحيحها من ضعيفها أمثال محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـــ) رحمه الله في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

ومـــن الممكن أن يجمع المُفَسِّر بين هـــذين النـــوعين كشيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـــ) رحمه الله.

فمن النوع الأول ما وصفه لنا تلميذه ابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـــ) رحمه الله من أنه " برع في التفسير، وغاص في دقيق معانيه بطبعٍ سيّال، وخاطرٍ إلى مواقع الإشكال ميّال، واستنبط منه أشياء لم يُسبق إليها " (٢).

---

(١) تُنظر بعض شروط الأهلية في كتاب: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، للدكتور مساعد الطيار ص (٢٢١ - ٢٢٥).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي (٣٢٢/٢).



ومن الثاني ما ذَكر عنه تلميذه ابن عبد الهادي الحنبلي (ت: ٧٤٤هـ) رحمه الله حيث إنه " كان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه، وحُسن إيراده، وإعطائه كلَّ قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال " (١).

وأما عبارة (ومتصدياً له): أي متصديًا له بالتعليم أو التأليف المستقل، فيخرج من كانت له آراءٌ لبعض الآيات في كتبه الفقهية أو النحوية أو البلاغية ونحو ذلك ؛ لأنه لم يتصد لتفسير كلام الله تعالى بتأليف أو تعليم على سبيل الاستقلال، إنما هي مُكَمِّلاتٌ وحاجيّاتٌ لهذا العلم الذي هو بِصَدَدِه، وعلى هذا فإنه لا يَصْلُح أن يُطلق عليه وصف المُفَسِّر.

ومثال هذا ما كان في موفق الدين ابن قدامة المقدَسي (ت: ٦٢٠هـ) رحمه الله فإني لا أعرف عنه - من خلال تصفح ترجمته (٢) - أنه تصدى لتفسير كلام الله تعالى بتأليف مستقلٍ أو تدريس، بالرغم من أن له آراءً في التفسير، وترجيحات في آيات الأحكام (٣).

بل لم أجد أحداً ممن ترجم له أطلق عليه وصف المُفَسِّر سوى ما كان من تلميذه الضياء المقدسي (ت: ٦٤٣هـ) رحمه الله حيث قال عنه: " كان إماماً في التفسير"(٤)، وكونه إماماً في التفسير وعالماً به فهذا لا يعني أنه تصدى له كما تصدى لعلم الفقه وأصوله.

وفي المقابل فهناك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي كانت له دروسٌ مستقلةٌ في التفسير بالجامع الأموي في دمشق بعد صلاة الجمعة على منبرٍ قد هُيِّىء له (٥) كما وصف ذلك تلميذه ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) رحمه الله الذي يُحتمل أن يكون قد حضرها.

(١) طبقات علماء الحديث، لابن عبد الهادي الحنبلي (٢٨٦/٤).
(٢) يُنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦٥/٢٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠٧/١٣)، وشذرات الذهب لابن العماد (٨٨/٥).
(٣) يُنظر: آيات الأحكام في المغني لابن قدامة، رسالة دكتوراه مقدمة من الدكتور ناصر بن سليمان العمران، نشر مكتبة التوبة - الرياض.
(٤) سير أعلام النبلاء (١٦٩/٢٢).
(٥) البداية والنهاية (٣٢١/١٣).



وقد كان له أيضًا نصيبٌ وافرٌ في كتابة التفسير إلا أني لا أعرف أنَّ له تفسيراً كاملاً، إنما الذي وصلنا منه فإنه يُشَكِّلُ مُعظَم القرآن، مما جعل بعض الباحثين يعكفون على جمعه وترتيبه في كتبٍ مستقلةٍ ككتاب (دقائق التفسير) [١]، و (التفسير الكبير) [٢].

وعلى هذا فإنَّ التعريف قد احتوى على ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون أهلاً للتفسير.

والثاني: أن يكون له رأيٌ في التفسير.

والثالث: أن يكون متصدياً له.

فلا بد أن يرتبط كلٌ منهم بالآخر دون الفصل بينهم، فمن كانت له آرآءٌ في التفسير لكنه غير متصدٍ له فإنه لا يكون في عِدَاد المفسرين والعكس، ومن كان متصدياً له ولكن الأهلية فيه منتفية فإنه لا يُسمى مُفَسراً وهكذا.

ولذلك فإننا نستطيع أن نصفه بكونه مشاركاً في التفسير - كما هو رأي الدكتور الطيار [٣] - أو مختصاً في التفسير وعلوم القرآن، أو له جهودٌ في الدراسات القرآنية.. ونحو ذلك من العبارات والنعوت المناسبة له دون أن يُطلق عليه وصف (المُفَسِّر).

ثانياً: تعريفه مركباً:

لم أجد أحداً عرَّف هذا الموضوع، تعريفاً يُحدد معالمه، ويُبرز حدوده، مما جعلني اجتهد في وضع مفهومٍ شاملٍ لهذا الأمر، فأقول وبالله التوفيق والتسديد:

هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمُفَسِّر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواءً كانت المقابلة تامةً أو جزئيةً أو مخالفةً لِمَا عليه الآية.

---

(١) جمع وترتيب: د. محمد السيد الجليند، في ست مجلدات، مؤسسة علوم القرآن - دمشق.

(٢) جمع وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، في سبع مجلدات، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) مفهوم التفسير والتأويل... ص (٢١٣).



وقولي: " سواءً كانت المقابلة تامةً... " فأعني الأنواع التي يكون بها تنـــزيل الآيات على الواقع، وسيأتي بيانها في المبحث الثاني من الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

أما الكلام حول تطبيقات المعاصرين لهذه النظرية من خلال تفسير المنار، ومجالس التذكير، فإنه سيأتي الحديث عنها لاحقاً في القسم الثاني إن شاء الله تعالى.



المبحث الثاني
علاقته بمسألة (الحكمة من نزول القران منجماً)

لقد كان نزول القران الكريم منجماً مثارَ اعتراضٍ لدى المشركين، حيث إنه لم يكن جملةً كسائر الكتب السماوية ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٢).

فردّ الله تعالى عليهم بذكر حكمة اقتضت نزوله مفرقاً، وهي تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه، فقد كان يواجه أشد الأذى من قومه أثناء تبليغه دين الله عزوجل، فيصيبه الهم، وينتابه الحزن... عند ذلك تتنــــزل آيات الله تعالى عليه كقوله: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧)، ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الطور: ٤٨)، ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ (فاطر: ٨)، ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (القمر: ٤٥)... فتكون تسليةً لنفسه، وتطميناً لقلبه، وبشارةً لِمَا هو آتٍ من النصر و التمكين.

ولهذا قال أبو شامة المقدسي (١) رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (الفرقان: ٣٢) " أي لنقوي به قلبك، فإنَّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثةٍ كان أقوى للقلب، وأشدَّ عناية بالمرسَل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول المَلَكِ عليه، وتجديد العهد به

(١) **هو**: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، أبو القاسم، مفسر ومحدث، من فقهاء الشافعية، توفي سنة (٦٥٦هـ)، وله من المؤلفات المطبوعة: (المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز)، و (نور المسرى في تفسير سورة الإسراء).
يُنظر: طبقات المفسرين للدوادي (١/٢٦٣)، ومعجم المفسرين (١/٢٦٣).



وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجَنَابِ العزيز فيحدث له من السرور ما تَقْصُرُ عنه العبارة " (١).

وقد اجتهد العلماء الأجلاء رحمهم الله تعالى في استخراج واستنباط العديد من الحِكم التي حرصوا على ذكرها وتقييدها في تواليفهم ولا سيما المعاصرين منهم (٢).

وكان من أبرز هذه الحِكَمِ: معالجة وتقويم الواقع في عصر التنـــزيل، وذلك بنـــزول الآيات حسب الوقائع والأحداث كما أشار الله تعالى لذلك بقوله: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء: ١٠٦).

قال ابن عطية (ت: ٥٤٦هـــ) رحمه الله معلقاً على هذه الآية: "وهذا – إشارةٌ إلى نزوله مفرقاً – كان مما أراد الله من نزوله بأسبابٍ تقع في الأرض، من أقوالٍ وأفعالٍ في أزمان محدودةٍ معينة " (٣).

وهذه الأقوال والأفعال إنما هي عبارةٌ عن الواقع الطارئ والحادث في هذا العصر فيعايشون ملابساته، ويعاصرون قضاياه.

ولذلك قال الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـــ) رحمه الله: " نَزَلَ متفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم " (٤).

فلو كان نزول القران الكريم جملةً واحدةً لانتفت منه هذه الحِكمة الجليلة ؛ إذ ليس من المعقول أن تنـــزل الآيات في وقائع لم تحدث بعد و لم تخطر على فكر أحد، ولهذا نقل

---

(١) المرشد الوجيز ص (٢٨).

(٢) يُنظر على سبيل المثال: مناهل العرفان (٥٣/١)، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة ص (٦٥)، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص (٤٩)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص (١٠٧)، ومدخل إلى القرآن والحديث لعدنان زرزور ص (١٠٢).

(٣) المحرر الوجيز (٤٩١/٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥٦٧/١).



الطاهر بن عاشور عن جده(1) رحمهما الله قوله: " إنَّ القرآن لو لم ينــزل منجّماً على حسب الحوادث لَمَا ظهر في كثيرٍ من آياته مطابقتُها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها " (2).

ولذلك فإنَّ من يتأمل كتاب الله تعالى يلاحظ أنَّ كثيراً من الوقائع والأحداث قد نَزَلَت آيات بشأنها إما على سبيل:

١- الموافقة والتأييد، كنــزول آياتٍ كريماتٍ توافق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتؤيد رأيه في كثير من الوقائع والأحداث.

منها قوله رضي الله عنه: " وافقت ربي في ثلاث (3) فقلت يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنــزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥)، وآية الحجاب قلت يا رسول الله: لو أمرت نساءَك أن يحتجبن فإنه يُكَلِّمهن البر والفاجر، فنــزلت آية الحجاب (4)، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيرة عليه فقلت لهن: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ (التحريم: ٥)، فنــزلت هذه الآية "(5).

---

(1) الوزير الشيخ محمد العزيز بو عتور، جد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور لأُمه، تَقَلّد الكثير من المناصب الوزارية في عهد الأمير الصادق باي، في دولة البايات في تونس، وهو من المشاركين في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة.
يُنظر: صفحات من تاريخ تونس، للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة ص (٤٢٢ - ٤٣٧).

(2) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠).

(3) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٨/ ٦٠٢): " قوله: (وافقت ربي في ثلاث) أي وقائع، والمعنى وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، لكن لرعاية الأدب أسند الموافقة إلى نفسه ".

(4) وهي قــولــه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ماجاء في القِبلة (فتح ١/ ٦٠١) حديث رقم (٤٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (نووي ١٥/ ١٦٢) حديث رقم (٦١٥٦).



٢- **الاستدراك والتقويم**، وهذا متمثلٌ في آيات عتاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ولصحابته رضي الله عنهم في بعض المواقف والوقائع التي تُعارض أمر الله تعالى، والتي منها – على سبيل المثال - عتاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ لَمَّا أراد أن يستغفر لِعمه أبي طالب بعد موته وهو على الشرك فقال رسول الله ﷺ: " لأستغفِرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك " (١)، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (التوبة: ١١٣).

٣- الإجابة لبعض التساؤلات التي يطرحها الناس على النبي ﷺ ، كالآيات التي يتم الابتداء بها بـــ ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ أو ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أو غيرها، سواءً كان السؤال صادراً من المسلمين أو المشركين.

ومثاله: ما جاء عن سهل بن سعد: " أن عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجلٍ وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع ؟ سَلْ لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصمٌ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. فَكَرِه رسول الله ﷺ المَسائل، فسأله عويمر، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كَرِهَ المسائلَ وعَابَها قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فجاء عويمر فقال: يا رسول الله، رجلٌ وَجَدَ مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك (٢) فأمرهما رسول الله ﷺ بالمُلاعنة بما سمى الله في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦) (فتح ٣٦٥/٨) حديث رقم (٤٧٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يَشْرَع في النــزع.. (نووي ١٦١/١) حديث رقم (١٠٣).

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (النور: ٦).



كتابه فلاعنها.." (١).

٤- إظهار الحقائق للناس، وكشف ماكان غامضاً مستتراً، كإظهار حقيقة الإفك المفترى على عائشة رضي الله عنها وكذلك كشف زيف المنافقين ونواياهم ضد الإسلام، وغير ذلك.

ولا شك أنَّ هذه الأحداث تُمَثِل جُزْءًا من الواقع الذي يعيشه الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ولذلك فإننا نجد القران الكريم قد اهتم بها، وأنزل بشأنها الآيات تتلى إلى يوم القيامة.

وهذا لا يعني أنَّ نزول القران الكريم كان كله استجابةً للواقع - كما يدعيه بعض الباحثين (٢) - فإن اشتد الواقع اشتد الوحي، وإن تراخى الواقع تراخى الوحي معه، بل إنَّ أكثر القرآن نزل ابتداءً دون سبب أو حدث معين، كتقرير أمر العقيدة، وبيان أحكام الشريعة الإسلامية، وذكر أحوال الأمم السابقة، وأنَّ هذه الآيات التي نزلت بسبب الوقائع معدودةٌ لا يربو عددها عن (مائتي) آية من مجموع آيات القرآن الكريم التي تزيد على ستة آلاف آية، ولهذا عابَ الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) (٣) رحمه الله على كثير من المُفَسِّرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة في أسباب النزول فأثبتوها في كتبهم ولم يُنَبهوا على مراتبها قوةً وضعفاً، حتى أوهموا كثيراً من الناس أنَّ القرآن لا تنزل آياته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ (فتح ٣٠٣/٨) حديث رقم (٤٧٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، (نووي ٣٥٨/١٠) حديث رقم (٣٧٢٣).

(٢) **هو**: الدكتور حسن حنفي، رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، مارس التدريس في عدد من الجامعات العربية، وله عدد من المؤلفات في فكر الحضارة العربية والإسلامية.
يُنظر: موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين للدكتور خليل أحمد خليل (٣٦٢/١).
وقد تحدث عن هذه القضية في كتابه: (قضايامعاصرة) (٩٢/١)، وقام الكثيرون بمناقشته والرد عليه أمثال الأستاذ الدكتور أحمد محمد الطيب، في مبحث التراث والتجديد، من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر عدد ١١ - عام ١٩٩٣م ص (١٢٩ - ١٧١)، وكذلك الدكتور عدنان محمد زرزور في كتابه: (مدخل إلى القرآن والحديث) ص (١٧٧).

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير (٤٦/١).



إلا لأجل حوادث تدعو إليها.

فإذا قلنا بأنَّ القرآن الكريم نَزَلَ كُلُّهُ استجابةً للواقع، وأنَّ أحكامه وتشريعاته مقتصرة عليه، فهذا يقتضي استبعاده وإزاحته عن واقع بقية العصور المستقبلية ؛ لأنه لا يلائمها ؛ نظراً لتطور كل واقع وزمن عن الذي قبله، وما يكون فيه من متغيرات ومستجدات لم تكن معهودة ولا معروفة في واقع التنـــزيل، ولو كان كذلك لتركه التابعون ومن بعدهم !!.

إذا تبين هذا، فإنَّ قضية تنـــزيل الآيات على الواقع في عصر المُفَسِّر هي امتثالٌ لهذه الحكمة الجليلة، وهي معالجة الوقائع والأحداث من خلال كلام الله تعالى في كل عصر وزمن لمشابهتها بحوادث ووقائع عصر التنـــزيل التي من أجلها نَزَلَ بعض النص القرآني الكريم، ولأنه كتاب الزمن الذي لم يكن محصوراً في وقتٍ دون غيره.

وقد بيّن ابن باديس رحمه الله هذا الأمر أثناء كلامه عن الحِكَم التي من أجلها نَزَلَ القرآن منجماً فذكر هذه الحكمة التي نحن بصددها وبيّن حظَّنا من العمل بها فقال: " أنْ نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طَرَف ألسنتنا، ومعانيه نُصْبَ أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننـــزلها عليها كما كانت تنـــزل على الأحوال والوقائع.

فإذا حَدَثَ مرضٌ قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه.

وإذا عَرَضَت شبهةٌ أو وَرَدَ اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال.

وإذا نَزَلَت نازلةٌ طلبنا فيه حكمها وهكذا نذهب في تطبيقه وتنـــزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا " (١).

فهذه نظرة ثاقبة خَرَجَتْ من نورهِ رحمه الله تدل على فهمٍ جديدٍ، وإدراكٍ واعٍ لمفهوم الحِكَم من نزول القرآن منجماً.

فكأنه يقول: إنَّ القرآن فيه كل شيءٍ نحتاجه ؛ إذ أنَّ الوقائع والحاجات تنطلق من حياتنا.

---

(١) مجالس التذكير ص (١٨١).



المبحث الثالث

علاقته بمسألة (صيغ أسباب النــزول المحتملة)

إنَّ من المعلوم لدى أهل العلم بالتفسير أنَّ أسبابَ النــزول مصدرها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، بل هو راجعٌ إلى الرواية الصحيحة أو المشاهدة والسماع لدى الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

ولذلك قال الإمام الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) رحمه الله: " ولا يحلُ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنــزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطِّلاب " [١]، وقد نقل العلاّمة الكافيجي[٢] رحمه الله الإجماع في ذلك[٣].

ونجد سلفنا الصالح رضي الله عنهم قد شَدَّدوا في هذه المسألة أيّما تشديد ؛ حفاظاً لكلام الله تعالى من أن يشوب تفسيره الخطأ والمجانبة.

فهذا محمد بن سيرين (ت: ١١٠هـ) رحمه الله يقول: " سألتُ عَبيدَة [٤] عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أُنزل القرآن " [٥].

(١) أسباب النــزول ص (٤٣).

(٢) **هو**: محمد بن سليمان الكافيجي الحنفي، لُقب بالكافيجي لاشتغاله بكافية ابن الحاجب، تتلمذ على يديه السيوطي وأفاد منه، توفي سنة (٨٧٩هـ).
يُنظر: الضوء اللامع للسخاوي (٢٥٩/٧)، وبغية الوعاة للسيوطي (١١٧/١)، ومعجم المفسرين (٥٣٥/٢).

(٣) التيسير في قواعد علم التفسير ص (٢٠٦).

(٤) **هو**: عَبيدَة بن عمرو السلماني، أسلم قبل وفاة الرسول ﷺ بسنتين ولم يَلْقه، وكان عالماً فقيهاً، من أصحاب علي وابن مسعود رضي الله عنهما، توفي سنة (٧٢هـ).
يُنظر: تهذيب التهذيب (٧٨/٧).

(٥) أسباب النــزول ص (٤٣).



ومن ثَمَّ فإنَّ إشكاليةً تعرض لنا تُخالف ظاهر ما سبق ومضمونها ما يلي:

إذا كانت أسباب النــزول مصدرها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيها، فكيف نوجه تنـــزيل بعض الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بعض الآيات القرآنية على حوادث لأشخاصٍ لم يكن لها أثرٌ أو وجودٌ أصلاً زمن التنـــزيل، بل على فرقٍ وجماعاتٍ لم تنـــزل بسببهم آيات البتة ؟!.

ومثاله ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٧)، حيث قال الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: " نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه " (١)، بالرغم من أن مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يكن إلا في سنة خمس وثلاثين من الهجرة على الصحيح، يعني بعد انقطاع الوحي ووفاة النبي ﷺ بأربع وعشرين سنة تقريبًا.

وعند قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنفال: ٢٥) قال الحسن البصري (ت: ١١٠هــ) رحمه الله: "نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير رحمة الله عليهم " (٢) ويريد بذلك الفتنة التي حصلت بعد مقتل عثمان، والنـــزاع الذي دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.

ومثال الفرق والجماعات ما كان عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٧) حيث قال الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "نزلت في الحرورية (٣) " (٤) يعني الخوارج.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢٢/١١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١٤/١١).

(٣) **هي**: فرقة من الخوارج، سُميت بهذا الاسم نسبة إلى حروراء – وهي قرية من قرى الكوفة – وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا علياً.
يُنظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (١٦٧/١)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (٢٨٣/٢)، والملل والنحل للشهرستاني (١١٥/١).

(٤) أورده ابن حجر في كتابه: العُجاب في بيان الأسباب (٢٤٧/١)، وأصله في صحيح البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾، (فتح ٢٧٨/٨) حديث رقم (٤٧٢٨).



وقال عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ﴾ (المائدة: ٣٣) " نزلت في الحرورية " (١).

وهذا التابعي الجليل محمد بن كعب القُرَظي رحمه الله يقول: " لَمَّا تَكَلَّم الناسُ في القدر، نظرتُ فإذا هذه الآية أُنزلت فيهم(٢): ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِى ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: ٤٧-٤٩).

وعند قولـــه تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (غافر: ٦٩) قال محمد بن سيرين رحمه الله: " إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية (٣) فإني لا أدري فيمن نزلت " (٤).

ومن المعلوم أنَّ هذه الفرق والجماعات لم تظهر إلاّ بعد انقطاع الوحي بخمسٍ وعشرين سنة تقريباً.

فهل هذا يعني أنَّ الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قد خالفوا التوقيف ؟!.

ليس الأمر كذلك قطعاً. فهم لا يعتقدون أنْ هذه التنـــزيلات هي السبب الرئيس الذي من أجله أُنزلت الآية، ولكنها داخلةٌ في معناه ومتضمنة له، ولهذا عَبَّروا عن هذه التنـــزيلات بصيغة " نزلت هذه الآية في كذا " أو " أُنزلت في كذا "، وهي ما تُعرف بالصيغة المحتملة.

---

(١) أخرجه ابن مردويه بسنده، وقد أورده ابن كثير في تفسيره (٤٦/٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٢/٢٢).

(٣) **هي**: فرقة من المعتزلة، سُميت بذلك نسبة إلى نفيهم للقدر بقولهم: إنَّ العبد هو الذي يخلق فعله، وأول القدرية – على الأرجح – هو معبد الجهني المقتول سنة (٨٠ هـــ).
يُنظر: الفَرْق بين الفِرَق ص (١١٤)، والملل والنحل (٤٧/١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٦٠/٢٠).



ومـــن هنـــا نجـــد عبـــارات أهل العلم تدل على ذلك، فهذا ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـــ) رحمه الله يقول: " وقد تنـــزل الآيةُ في معنًى ثم يكون داخلاً في حكمها كلُّ ما كان في حكم معنى ما نزلت به " (١).

وقال ابن تيمية (٧٢٨هـــ) رحمه الله: "وقولهم: (نزلت هذه الآية في كذا) يُراد به تارة أنه سبب لنـــزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول: عَنَى بهذه الآية كذا" (٢).

وقال الزركشي (٧٩٤هـــ) رحمه الله: " قد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أنَّ أحدهم إذا قال: (نزلت هذه الآية في كذا) فإنه يُريد بذلك أنَّ هذه الآية تتضمن هذا الحُكم لا أن هذا كان السبب في نزولها " (٣).

وقال ولي الله الدهلوي (٤) رحمه الله: " وقد تحقق لدى الفقير أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم كثيراً ما يقولون: (نزلت الآية في كذا) ولا يكون غرضهم إلا تصوير ما تصدق عليه الآية من الأحداث والمعاني: وذكر بعض القصص والوقائع التي تشملها الآية الكريمة لعموم لفظها، سواءً كانت القصة متقدمةً على نزول الآية أو متأخرة عنها، إسرائيلية كانت أو جاهلية، أو إسلامية تنطبق على جميع قيود الآية، أو بعضها... فكل مـــن يستحضر هذه النكتة، يستطيع أن يعالج اختلافات أسباب النـــزول بأدنى نظرة وتأمل " (٥).

---

(١) تفسير الطبري (٢٠٣/٢٠).

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص (٤٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣١/١).

(٤) **هو**: ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، فقيه حنفي من كبار محدثي زمانه، أحيا الله به السنة في بلاد الهند، وله عقب صالح ساروا على سيره، وله مشاركة في أكثر من علم، ومن مؤلفاته المطبوعة: كتاب (الفوز الكبير في أصول التفسير)، وكتاب (حجة الله البالغة)، توفي سنة (١١٧٦هـــ).
يُنظر: الأعلام (١٤٩/١).

(٥) الفوز الكبير في أصول التفسير ص (١٠٨).



فعلى هذا يكون عمل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم من قبيل الاجتهاد في غير ما نزل النص بسببه، أمَّا ما كان غير ذلك فهو توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

وهكـــذا يَعمـــد المفسر إلى تنـــزيل الآيـــات في كتاب الله تعالى على وقائع عصره، وذلك بأنها داخلة ومتضمنة لهذه الآيات التي نزلت بشأن وقائع وأحداث تشابهها وقائع المفسر في عصره، كمـــا هو صنيع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ولهذا قال الزركشي (ت: ٧٩٤هـــ) رحمه الله: " والعالِم قد يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحُكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل حفظه للنص " (١).

وبهذا يظهر لنا مدى العلاقة الوطيدة، والصلة الحميمة بين تنـــزيل الآيات على الواقع ومسألة صيغ أسباب النـــزول المحتملة التي تعتبر من المسائل التأصيلية لنظرية تنـــزيل الآيات على الواقع عند المفسرين.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣١/١).



المبحث الرابع

علاقته بمسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)

تعتبر مسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) (١) من المسائل الواضحة والصريحة التي استدل بها المفسرون على قضية تنـزيل الآيات على الواقع ؛ إذ كل حادثةٍ نَزَلَ بشأنها النص القرآني فإنه غير مقصورٍ عليها، بل إنَّ هذا النص يعمُ كل واقعة كانت ماضية أو مستقبلية، قد شابهت الحدث الرئيس الذي من أجله أُنزلت الآية.

وقد بيّن النبي ﷺ هذه المسألة في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رجلاً أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود: ١١٤)، فقال الرجل: يا رسول الله أَلِي هذا ؟ قال: "لجميع أمتي كلهم" (٢).

ونجد الصحابة رضي الله عنهم قد فهموا هذه المسألة أيضاً، فهذا كعب بن عُجْرة رضي الله عنهم يروي حادثة عن نفسه فيقول: " حُملتُ إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على

(١) اختلف الأصوليون حول هذه المسألة، فمنهم من يرى بأنَّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب وهو قول الجمهور، ومنهم من يرى بأنَّ العبرة بخصوص السبب، ويُنسب إلى المُزني وأبي ثور والدَّقاق، والراجح الأول.

تنبيه: هذا الخلاف محلُه إذا لم تقم قرينة على تخصيص لفظ الآية العام بسبب نزوله، أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لامحالة بإجماع العلماء.

يُنظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٢٠٢)، ومناهل العرفان (١/ ١١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (فتح ٢/١٢) حديث رقم (٥٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ، (نووي ١٧/٨٢) حديث رقم (٦٩٣٢).



وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاةً ؟ قلت: لا. قال: صُم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك. فنــزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة " (١).

ولذلك قال السيوطي (ت: ٩١١هـ) رحمه الله: " ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائعًا ذائعًا بينهم " (٢).

وقد اختزلت لنا هذه المسألة الكثير من القضايا والأحداث التي لم تكن موجودةً زمن التنــزيل، وهذه من حكمة الشرع الحكيم ؛ لأنَّ الوقائع لا نهاية لها، فهي تسير في حركة مستمرة سيّالة، وأنَّ النص القرآني الكريم هو الذي يستوعبها.

وقد أبعد النجعة بعض الباحثين (٣) في هذا الزمان ممن يرون بأنَّ (العبرة بخصوص السبب لا عموم اللفظ) (٤)، بقصد قصر الألفاظ القرآنية العامة على ما ورد في عصر النبوة فقط، دون تعميمها وتنــزيلها على بقية العصور.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ ، (فتح ٣٤/٨) حديث رقم (٤٥١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى.. (نووي ٣٦٠/٨) حديث رقم (٢٨٧٥).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٨٥/١).

(٣) **هو**: محمد سعيد العشماوي، مستشار ورئيس محكمة الجنايات، ومحكمة أمن الدولة العليا بمصر، مارس التــدريس في عددٍ مــن الجامعات والمعاهد الشرقية والغربية، وله العديد من المؤلفات المطبوعة منها: (معالم الإسلام)، و (الإسلام السياسي)، و (الخلافة الإسلامية) وغيرها.
يُنظر: المجلة العربية، عدد ١٧٥، ص (٥٤ – ٥٧)، شهر شعبان، عام١٤١٢هـ، ضمن سلسلة: كُتّاب يجب أن نحذرهم، للأستاذ: أحمد عبد العزيز بو عامر.

(٤) أشار إلى هذه المسألة في كتابه: الربا والفائدة في الإسلام ص (٣٣ – ٣٤)، وقد تولى الرد عليه عدد من الباحثين أمثال الدكتور: عمر عبد الله كامل في كتابه: قراءة نقدية في فكر محمد سعيد العشماوي والرد على افتراءاته ص (١١١ – ١١٨).



وبهذا الرأي تنتفي صلاحيّة القرآن لهذا العصر وغيره، فيكون محصوراً مقصوراً على عصره الذي نزل فيه.

ولهذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) رحمه الله قد تنبه لهذه القضية فقال: " والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب، هل يختص بسببه ؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إنّ عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعيّن، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ! والآية التي لها سبب معيّن إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنـزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولةٌ لذلك الشخص ولمن كان بمنـزلته أيضاً " (١).

فالآيات التي نزلت بشأن المنافقين في عهد النبي ﷺ ، وما فيها من وصف لأعمالهم، فإنها تَعُمُّ كل من يستحق أن يُطلق عليه وصف المنافق على مَرِّ العصور والدهور ممن يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر.

ولعل هذا ما يُفَسِّر عدم ذكر منافقٍ بعينه بل يأتي الحديث عنهم بأوصافٍ ونعوت تُرشد إلى أعمالهم، كما تكرر ذلك في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ (التوبة: ٤٩)، وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (التوبة: ٥٨)، وقوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (التوبة: ٦١)، وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (التوبة: ٧٥).

وكذلك الآيات التي نزلت في وصف المؤمنين وبيان حالهم، فإنها أيضاً تَعُمُّ كل من يستحق أن يُطلق عليه وصف الإيمان في أي عصر وزمن كان.

ولذلك قال الشيخ محمد رشيد رضا: " إنَّ الآيات على عمومها تتناول مَن كان منهم في عصر التنـزيل تناولاً أولياً، وتصف حالهم وصفاً مطابقاً، وهي مع ذلك عِبرة

(١) مقدمة في أصول التفسير ص (٤٧).



عامة شاملة لمن مضى ولمن يجيء من هذا الصنف إلى يوم القيامة " (١).

وأختم هذا المبحث بمسألة يجدر الإشارة إليها وهي: حكم تعميم بعض الآيات التي نزلت بشأن الكافرين من اليهود والنصارى ونحوهما، وتنـــزيلها على أفراد المؤمنين ممن انطبقت عليهم بعض الصفات التي حملها الكفار.

فأقول: إنَّ من يتأمل عبارات السلف من المفسرين وغيرهم يلاحظ أنهم يُجّوزون هذا الأمر ؛ نظراً لِمَا شابه به عمل هؤلاء المسلمين عمل أولئك الكافرين، ولأنَّ هذه الآيات متناولةٌ من كان على مثل حالهم من هذه الأمة.

ومثاله ما جاء عن ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـــ) رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (البقرة: ٢٧) حيث قال: "...غير أنَّ هذه الآيات عندي وإن كانت فيهم نزلت - أي أحبار اليهود ومن كان على شِركه من أهل النفاق - فإنه معني بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلالة، ومعني بما وافق منها صفة المنافقين خاصة جميع المنافقين وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيراً في كفرهم " (٢).

وكذلك ما جاء في آية التحذير من كتمان العلم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٩)، حيث قال الطبري (ت: ٣١٠هـــ) رحمه الله: "...وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس فإنها معنيٌّ بها كل كاتمٍ علماً فرض الله تعالى بيانه للناس "(٣).

(١) تفسير المنار (١/١٣٤).

(٢) تفسير الطبري (١/٤٣٧).

(٣) تفسير الطبري (٢/٧٣٢).



وقد فهم أبو هريرة رضي الله عنه هذا المعنى فقال: ".. ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتُ حديثاً" ثم تلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ الآيتان (١)

فهاتان الآيتان وإنْ كان المخاطب فيهما أهل الكتاب، إلا أنه جاز لنا أن ننــزلهما ونعممهمــا علــى غيرهم ممن شــابه عملهم مــن المسلمين، كمــا قال الزمخشري (ت: ٥٣٨هـــ) رحمه الله: " وكم من آية أُنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها " (٢).

وقال ابن باديس رحمه الله: " نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين ؛ لأنَّ الوصف المذموم مذموم، سواءً أكان المتصف به مؤمناً أم كان كافراً " (٣).

وعلى هذا فإن التنـــزيل بهذه الصورة يكون جائزاً بضوابط ينبغي الاعتناء والاهتمام بها وهي الآتي (٤):

أولاً: يحسُنُ ذكرُ مدلولِ الآية المطابق، وهو أنها نازلة في الكفار، وأنه يستفاد منها أن من اتصف بهذه الصفة من المسلمين، فإنه يُلحق بحكم الكفار، ولكن كل بحسبه، فهذا كافرٌ كفراً محضاً، وهذا مسلمٌ عاصٍ وافق الكفار في هذه الصفة.

ثانيًا: إن من سلك هذا الطريق، فإنه لا يصح أن يقصر الآية على ما فسر به قياساً، ولو فعل لكان فعله تحكماً بلا دليل، كما هو حال أهل البدع، والتحكم لا يعجز عنه أحد.

ثالثًا: يلزم أن يكون بين معنى الآية الظاهر وبين ما ذكره من الاستشهاد أو التفسير قياساً ارتباطٌ ظاهرٌ، وإلا لكان باطلاً من أصله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب حفظ العلم (فتح ٢٥٨/١) حديث رقم (١١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه (نووي ٢٧٢/١٦) حديث رقم (٦٣٥٠).

(٢) تفسير الكشاف (٢٩٣/٣).

(٣) مجالس التذكير ص (١٤٦).

(٤) تُنظر هذه الضوابط في مجلة: (مواكب) عدد ١٢، عام ١٤٢٣هـــ مقال بعنوان: (الاستشهاد بالآيات في غير ما نزلت فيه...) ص (١٦) للدكتور مساعد بن سليمان الطيار.



الفصل الثاني

تنزيل الآيات على الواقع: نشأته، وأنواعه وفوائده، وحكمه

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: نشأته وتطوره.

المبحث الثاني: أنواع تنـــزيل الآيات على الواقع

المبحث الثالث: فوائد تنـــزيل الآيات على الواقع وحاجة الناس إليه.

المبحث الرابع: حكم تنـــزيل الآيات على الواقع وضوابطه.



المبحث الأول
نشأته وتطوره

لم تكن قضية تنـــزيل الآيات على الواقع مستخدمةً في عصر النبي ﷺ ؛ وذلك لأنّ النص القرآني ما زال مستمراً في النـــزول على الوقائع والأحداث.

إلا أنّ عملية الاستشهاد بالآيات على الواقع (١) والتي تعتبر جُزءاً من التنـــزيل كانت متداولةً ومعروفة، فقد كان النبي ﷺ يستشهد بالآية على ما يكون من وقائع وأحداث في عصره لم ينـــزل بشأنها قرآن.

ومن ذلك ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أنَّ رسول الله ﷺ طرَقَهُ وفاطمةَ بنتَ النبي ﷺ ليلةً فقال: ألا تُصليان ؟ فقلت: يا رسول الله ! أنفُسنا بيدِ الله، فإذا شاء أنْ يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضربُ فَخِذَهُ وهو يقول: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (الكهف: ٥٤) " (٢).

---

(١) الاستشهاد بالآيات على الواقع: هو طلب نصٍ من القرآن يشهد لواقعة معينة، ويكون ذلك إذا لم يُبن عليه حُكمٌ شرعي، أما إذا بُني عليه حُكمٌ شرعي فإنه يُسمى استدلالاً، وهو طلب نصٍ من القرآن يدل على حُكمٍ ما، ومثاله ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٦٤/٢) عند قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة: ٥٠) حيث بيَّن انحراف حُكام زمانه عن الحُكم بشرع الله تعالى.

يُنظر كلامه في المبحث الثالث من هذا الفصل ص (٦٥).

وعلى هذا فالاستشهاد أعمُّ من الاستدلال، فكل استدلالٍ يكون استشهاداً وليس العكس، وكلاهما داخلٌ في دائرة التنـــزيل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل.. (فتح ١٣/٣) حديث رقم (١١٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما رُوي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (نووي ٣٠٦/٦) حديث رقم (١٨١٥).



فلفظ الإنسان عامٌ يُطلق على كل من اتصف بالإنسانية سواءً كان مسلماً أو كافراً، و لَمَّا سمع النبي ﷺ هذا الجدال الذي صَدَر من زوج ابنته علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رأى أنَّ هذه الآية هي أنسبُ آيةٍ في القرآن تشابه الموقف الحالي فاستشهد بها ﷺ .

وكذلك ما رواه بُرَيْدة بن الحُصَيب (١) رضي الله عنه حيث قال: خطبنا رسول الله ﷺ فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنـــزلَ فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: "صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ (التغابن: ١٥) رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في الخطبة" (٢).

فأيُ خُطْبة أعظم وأبلغ من هذه التي اشتملت على التطبيق العملي لِمَا يُخبر به الله في كتابه الحكيم من فتنة الأموال والأولاد للمؤمن.

وقد سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم على طريقة النبي ﷺ ، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لَمّا نُعي إليه خبر وفاة النبي ﷺ ورأى تشكيك بعض الصحابة رضي الله عنهم في هذا الأمر صعد المنبر وقال: " أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ

(١) **هو**: بُريدة بن الحُصَيب بن عبد الله الأسلمي، صحابي جليل، أسلم بعد الهجرة، وغزا مع النبي ﷺ ست عشرة غزوة ثم سكن في آخر حياته في مرو إلى أن مات فيها سنة ثلاث وستين من الهجرة. يُنظر: الإصابة (١/٤١٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخُطبة للأمر يحدث (١/٦٣٣) حديث رقم (٢٣٣)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحُسين (٥/٦١٦) حديث رقم (٣٧٧٤)، والنسائي في سننه، كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة... (٣/١٠٨) حديث رقم (١٤١٣)، وابن ماجه في سننه، كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال(٤/١٥٩) حديث رقم (٣٦٠٠).
والحديث صححه ابن خُزيمة (٢/٣٥٥)، وابن حبان (١٣/٤٠٣)، والحاكم في المستدرك (١/٤٢٤)، وحسنه الترمذي (٥/٦١٧).



فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)(١).

فكان هذا الاستشهاد فصلاً للخطاب، وتخفيفاً للمصاب، وحَسْماً للجدال الذي حصل، وكأن الناس لم يسمعوا بها من قبل حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه فانطلقوا يتلونها ويستشهدون بها، بالرغم من أنّها نزلت في غزوة أُحد عندما أُشيع موت النبي ﷺ .

وغيرها من الأمثلة التي تدل على شيوع أمر الاستشهاد بالآيات على الواقع في عهد النبي ﷺ والصحابة ومن بعدهم.

أما التنـــزيل فـــإنه لم ينشأ بصورةٍ واضحةٍ إلا في عصر الخلفاء الراشدين وخاصةً بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ وذلك لأنَّ الوحي الذي كان يعالج قضاياهم قد انقطع، فكثُرت الفتن، وخَرَجَت التيارات الفكرية والفرق المخـــالفة لأمـــر الله تعالى ورسوله ﷺ ، كالخوارج والقدرية والشيعة ونحوهم، ممـــا جعل بعض الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ينـــزلون بعض الآيات على هذه الفتن والفرق المبتدعة.

ومن ذلك تنـــزيلهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزمر: ٣٠-٣١) على فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث قال ابن عمر رضي الله عنه: " نزلت علينا هذه الآية وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة فقلنا هذا الذي وعدنا ربُنا أن نختَصِم فيه " (٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أُدرج في أكفانه (فتح ٣/١٣٦) حديث رقم (١٢٤٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/٢٠٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/٣٢٥٠)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٢/٦٥٦) إلى عبد بن حميد وابن مردويه.



وقال إبراهيم النخعي [1] رحمه الله: " لَمَّا نزلت ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قالوا: ما خُصومتُنا بيننا ونحن إخوان؟ قال: فلما قُتِلَ عثمان بن عفان قالوا: هذه خصومتنا بيننَا حَدَثَت " [2].

وكذلك تنـــزيلهم بعض الآيات على فرقة الخوارج ومنها قول قتادة [3] رضي الله عنه إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: ٧) قال: " إن لم يكونوا الحرورية والسبئية [4] فلا أدري من هم " [5].

وكان أبو أُمامة رضي الله عنه يقول عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦) " هم الخوارج " [6]، وقال هذا أيضاً [7] عند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف: ٥).

---

(١) **هو**: إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي، يُكنى أبا عمران، من أهل الكوفة، ومن مشاهير مفسري مدرستها، روى عن علقمة ومسروق، توفي سنة (٩٦هـ).
يُنظر: وفيات الأعيان (٦/١)، والوافي بالوفيات (١٦٩/٦)، ومعجم المفسرين (٢٤/١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠٢/٢٠)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٥٦/١٢) إلى عبد بن حميد.

(٣) **هو**: قتادة بن دعامة السدوسي، مُفَسِّر، وفقيه، وحافظ للحديث، وروى عن أنس بن مالك وعدد من كبار التابعين، من مؤلفاته: (تفسير القرآن)، و(الناسخ والمنسوخ)، و(عواشر القرآن)، توفي سنة (١١٨هـ)
يُنظر: طبقات المُفسرين للداودي (٤٣/٢)، ووفيات الأعيان (٨٥/٤)، ومعجم المفسرين (٤٣٥/١).

(٤) **السبئية**: إحدى فرق الشيعة الغالية، وهي تُنسب إلى عبد الله بن سبأ، ومن جهالاتهم: زعمهم أن علياً رضي الله عنه لم يمت، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وأنه في السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه... إلى غير ذلك من ترهاتهم.
يُنظر: مقالات الإسلاميين (٨٦/١)، والملل والنحل (١٧٤/١).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠٧/٥).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٦٦٥/٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٢٩/٣)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧٢٣/٣) إلى عبد بن حميد.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٦١٢/٢٢).



وكذلك ما كان من أبي الجوزاء[1] إذا تلا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ (آل عمران: ١١٩) فإنه يقول: **"**هم الإباضية[2]**"**[3].

وسَأَلَ عبد الله بن الكَوَّاء [4] علياً رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الكهف: ١٠٣) قال: " أنتم يا أهل حروراء " [5]، وفي رواية: "أنت وأصحابك" [6].

فَلَمَّا كانت بدعة الخوارج أول بدعةٍ حَدَثَتْ في الإسلام، وأنها تُشَكِّلُ خطراً عظيماً على فكر الأمة، وهاجساً كبيراً يُؤَرِّقُ خاطر الصحابة والتابعين، ويزعج نفوسهم،

---

(١) **هو**: أوس بن عبد الله الرَبعي البصري، من كبار العلماء، يُكنى بأبي الجوزاء، وقد حَدَّث عن عائشة وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، وكان أحد العباد الذين قاموا على الحَجَّاج، وقيل: أنه قُتل يوم الجماجم سنة (٨٣هـ).
يُنظر: سير أعلام النبلاء (٤/٢٧١)، وتهذيب التهذيب (١/٣٣٥).

(٢) **الإباضية**: فرقة من الخوارج، وهم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي، الذي خَرَج في أيام مروان بن محمد، ومن معتقداتهم: أنَّ مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام، ودار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار بغي، ومرتكبي الكبائر موحدون لا مؤمنون.
يُنظر: مقالات الإسلاميين (١/١٨٣)، والملل والنحل (١/٢٤٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/٧١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/٧٤٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/٧٤٠) إلى عبد بن حميد.

(٤) **هو**: عبد الله بن عمرو بن الكَوَّاء اليشكري، من رؤوس الخوارج، وله أخبارٌ كثيرةٌ مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ممن رَجَعَ عن مذهب الخوارج لَمَّا حاورهم ابن عباس رضي الله عنهما في الحادثة المشهورة.
يُنظر: لسان الميزان لابن حجر (٣/٣٢٩).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/٤٢٦).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/٤٢٦).



وجدناهم قد استخدموا تنـــزيل بعض الآيات التي فيها وصف الكفر، والزيغ، وخسران العمل، وسواد الوجه... على هذه الفرق المعاصرة لواقعهم.

ولَمَّا جاء العصر العباسي والذي يُعتبر من أخْصَبِ العصورِ في تفسير القرآن العظيم، وأغْزَرِها إبداعاً في مجالاته، وخرجت فيه تفاسير الرأي والمعقول، أصبحت قضية تنـــزيل الآيات على الواقع تأخذ مجراها بشكلٍ أوسع من ذي قبل، إلا أنه لا يحق لنا أن نجعلها ظاهرةً ملموسة، بل هي إشارات يسيرة منثورة في تفاسيرهم تتفاوت من مُفَسِّرٍ لآخر.

ولعل الأسباب التي ترجع إلى هذا التفاوت تكمن في الأمور الآتية:

١- اقتصار المُفَسِّر في تفسير القرآن على بيان المُفردة أو الجملة القرآنية فقط، دون أن يُورد أحداثَ وقضايا واقعه، وهذا الأمر أكثر ما يكون في تفاسير معاني القرآن ومفرداته كمفردات القرآن للراغب، ومعاني القرآن للفرَّاء والأخفش ونحوهما.

٢- التزام المُفَسِّر (١) بذكر الأحاديث والآثار الواردة عن النبي ﷺ، وصحابته والتابعين، في تفسير الآية الواحدة دون أن يكون له عملٌ في تحليل النصوص، أو ربطها بالواقع، وهذا ما يكون في التفاسير المسندة، كتفسير ابن أبي حاتم وعبد الرزاق وغيرهما، أو التفاسير التي تَنُصُ على نقل التفسير المأثور ككتاب السيوطي المسمى بـــ (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) ونحو ذلك.

٣- أن يعمد المُفَسِّر إلى تفسيرٍ معينٍ فيقوم باختصاره، وفق منهجٍ محددٍ يُلزِمه عدم الخروج عن الأصل سوى ما يكون من حذف الأسانيد أو الروايات الإسرائيلية أو الضعيفة أو الموضوعة ونحو ذلك، مع الحفاظ على أصل التفسير مما يضطر المُخْتَصِر إلى عدم إدخال قضايا واقعه المعاصر.

(١) سميته مفسراً تجوزاً وإلا فهو مشارك في خدمة التفسير، مالم يكن متصدياً له في تفسيرٍ آخر أو تدريس. يُنظر: المبحث الأول من الفصل الأول ص (٢٤ - ٢٧).



ومن يتأمل اختصار العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـــ) لتفسير الماوردي (ت: ٤٥٠هـــ) يُدرك صدق ما ذكرت، فبالرغم من أنَّ واقعه كان مليئاً بقضايا الأمة المصيرية كالقتال مع التتار ونحوها إلا أنه لم يُشرْ في مختصره هذا إلى شيءٍ من ذلك؛ نظراً للمنهج الذي اتخذه في الاختصار.

٤- الظروفُ السياسية في عصر المُفَسِّر لها أثرٌ كبيرٌ في إخفاء كثيرٍ من قضايا الواقع الحسَّاسة، والتي كان من الممكن تنـــزيل بعض الآيات عليها، ولكن خشية المُفَسِّر من الأذى والتنكيل به، وحرصاً منه على درء الفتنة من المجتمع ونحو ذلك، جعلته يلجأ إلى عدم الإفصاح عن هذه الأمور، أو إلى اتخاذ ما يُسمى بـــ (تنـــزيل التلميح) (١) فيجعله ستراً وحمايةً عما يَعرِض له من المصائب والبلايا.

٥- " انتشار الأفكار التي لا تنسجم مع روح العقيدة الإسلامية، فَتُحوِّل التفسير إلى معارك فكريةٍ مذهبيةٍ بين أهل السنة والمعتزلة، والخوارج والشيعة وغيرها، إضافةً إلى خلافات النحويين والفقهاء.. وتحوّل الأمر بعد ذلك ليكون الدافع لتفسير القرآن - عند كثيرٍ من المفسرين وبنسبٍ متفاوتةٍ - هو المتعة الفكرية والشغف الثقافي بكثيرٍ من المعارف والفنون، ومن هنا بدأ التجاوز الصريح للواقع الحياتي للأمة، وقامت الفجوة بين تفسير القرآن الذي هو المُحَرِّك الحقيقـــي لحياتها وبين واقع هـــذه الأمة " (٢) ولعل تفسير الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـــ) المسمى بـــ (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير) يُعد من ضمن هذه التفاسير التي دارت فيها الكثير من المعارك العقدية والكلامية، ناهيك به عن المتعة الفكرية والترف الثقافي، حتى بالغ فيه بعضهم فقـــال:

---

(١) يُنظر: المبحث الثاني من هذا الفصل ص (٨٣ - ٨٧).

(٢) مجلة التجديد الماليزية، عدد ٤ - ربيع الآخر - عام١٤١٩هـــ، مقال بعنوان: (البعد الواقعي في العمل التفسيري) للدكتور زياد خليل الدغامين ص (٥٣).



"فيه كل شيء إلا التفسير" (١).

٦- طبيعة الفترة المكانية والزمانية، فقد يتفاوت التنـــزيل في مكان دون الآخر، كتفاسير المغاربةِ - أمثال ابن العربي والقرطبي - التي يَكثُر فيها هذا النوع عن غيرها من تفاسير المشارقة ؛ وهذا الأمر راجعٌ إلى اهتمام علماء ذلك القُطْر بفقه النوازلِ والمستجداتِ الطارئةِ على عصرهم (٢)، وإلى رصد وتسجيل ما يكون في رحلاهم من مواقف وأحداث (٣)، وفوق ذلك اهتمامهم بمسلك الاستنباط والربط والتحليل أكثر من غيرهم.

---

(١) الوافي بالوفيات، للصفدي (٢٥٤/٤).

(٢) ومن ذلك ما كتبه المُفَسِّر ابن الزبير الغرناطي رحمه الله (ت: ٧٠٨هـ) في رسالة له بعنوان: (الزمان والمكان) حيث نَزَّل فيها الآيات القرآنية التي وردت في موضوع النصر الذي وُعِدَت به الأمة على ما كان في بلاده من هجوم العدو الغازي على الأندلس، وذلك بقصد بعث الأمل في نفوس الأندلسيين وعودة الروح إليهم.

(٣) يُعتبر المغاربة مــن أوائــل مــن كتب في أدب الرحــلات كابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، وابن جبير (ت: ٦١٤هـ)، وابــن رُشَيــد الفهــري (ت: ٧٢١هـ)، والقــاسم بن يــوسف التجيبــي (ت: ٧٣٠هـ)، وابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ) وغيرهم.

وأود أن أُورد شيئاً من مواقفهم التي استخدموا فيها تنـــزيل الآيات على الواقع، ومن ذلك ما ذكره ابن رُشَيد في رحلته المسماه بـــ (ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيبة..) ص (٧٥) حيث ذكر قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (المائدة: ٩٤) ثم قال: " صحبني في الطريق من المدينة - على ساكنها الصلاة والسلام - قاصدين إلى البيت الحرام أحد الشيوخ من شرفاء المدينة، فلما وافينا رابغ رأيت أمراً عجباً من تخلّل الوحش: الغزال والأرنب بين الجمال والرحال، بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس يُنادون: حرام حرام، والجوارح قد سُلسلت خِيفة تعدي جاهل يعتسف المجاهل، فقال في ذلك الشيخ الشريف: تأمل تَرَ عجباً، هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق، يومنا ونحن مُحرِمون يَمُرُّ به من الوحش ما ترى، فإذا عُدنا مُحِلين لم نجد به شيئاً، فلما عُدنا كان كما قال، فبان لي من معنى الآية الكريمة مالم يكن غيّر بالمشاهدة... ".



وأمَّا الزمان فنجده يقل أو يكاد ينعدم في زمن العصر المملوكي عن غيره من العصور وذلك نظراً للضعف الذي أصاب الأمة في جميع شؤون حياتها العقدية والفكرية والعلمية حتى سُمِّي بعصر الجمود، الذي أُغلق فيه باب الاجتهاد، وأصبح من سماته التعقيد في التأليف، والاهتمام بالدوران حول النصوص شرحاً واختصاراً، وتحشيةً دون الإتيان بجديد يُذكر، خلا ما كان من مدارس مُعينة تُعدُّ على أصابع اليد قد فاقت زمنها فأبدَعَت وأنتجت تراثاً ضخماً متميزاً عن غيره نحو مدرسة ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) رحمه الله.

وقد يستغرب المرء من سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ) رحمه الله الذي كان حصناً منيعاً في مواجهة الأعداء، وجبهةً صامدةً في دفع المنكر والفساد، وهو العالم العارف البصير بمجتمعه خلو تفسيره (١) من تنـــزيل الآيات على واقعه، مما يدل دِلالة واضحة على بُعد التصانيف في ذلك العصر وانعزالها عن الواقع من حولها، ومن يتأمل تفاسير تلك الفترة يُدْرِكُ صدق ما ذكرت.

ثم أتى العصر الحديث فاستمد مما قبله آثار التخلف والانحطاط في شتى ميادين الحياة، وأخذ منهج الجمود الفكري والركود العلمي، حيث لا مجال للتجديد أو الابتكار، سوى فهم النصوص وشرحها شرحاً تقليدياً دون السماح للذهن بأن يُورِد اعتراضاً أو مناقشةً أو سؤالاً.

وقد أدى هذا التفاوت الكبير والفجوة الواسعة بين النص القرآني الكريم والواقع المعاصر الملموس إلى مستوى فظيعٍ من الوحشةِ والغربةِ بين الأمرين، فيكون المسلم العامي بعيداً كل البعد عن كتاب ربه ؛ وذلك لصعوبة الخطاب التفسيري في عصره، والذي

---

(١) المسمى بـ (تفسير القرآن العظيم)، وقد حقق الجزء الأول منه الدكتور يوسف الشامسي رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة أم القرى، والجزء الثاني حققه الدكتور بدر الصميط، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة الإمام.



قُصِر فهمه على النخبة من العلماء وطلاب العلم، فيكتفي المسكين بتعليقه على صدره أو داره، أو بقراءته وسماعه في المحافل والمناسبات، دون أن يجعله منهجاً للحياة وواقعاً عملياً ينطلق من خلاله.

وهذا ما جعل الشيخ محمد عبده (١) - الذي يُعتبر من رجالات الأزهر آنذاك - ينبُذُ هذا المنهج الجاف، ويدعو إلى تفسيرٍ حيوي يلائم حاجة العصر، ويعالج قضاياه، وما يكون به من هدايةٍ للأمة وصلاحها إلى الخير والفلاح.

ولذلك كان من حِكَمه التي اشتُهرت عنه قوله: " القرآن كلامٌ أبدي، رُقِمَ على صفحات الزمان إلى قيام الساعة خطاباً لجميع البشر " (٢).

وقال أيضاً: " إنَّ خطاب القرآن لا يختص بواقعة، بل يصح أن يكون خطاباً لكل الناس " (٣).

وقال كذلك: " إنَّ لكلام الله أسلوباً خاصاً يعرفه أهله، ومن امتزج بلحمه ودمه، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ، وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون " (٤).

---

(١) **هو**: محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني، ولد في مصر سنة (١٢٦٦هـ - ١٨٥٠م)، ودَرَس في الأزهر الشريف، وتخرج منه، ويُعتبر من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، وقد كتب في الصحف ولا سيما جريدة الوقائع المصرية، وقد تولى تحريرها، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولَمَّا احتلَّ الإنكليز مصر ناوأهم، وشارك في مناصرة الثورة العُرابية، فسُجن مدة ثلاثة أشهرٍ للتحقيق، ونُفي إلى بلاد الشام سنة (١٢٩٩هـ - ١٨٨١م)، وسافر إلى باريس، وأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى)، وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف، وسُمِحَ له بدخول مصر فعاد سنة (١٣٠٦هـ - ١٨٨٨م)، وتولى منصب القضاء، ثم جُعِلَ مستشاراً في محكمة الاستئناف، فمفتياً للديار المصرية سنة (١٣١٧هـ)، واستمر في ذلك إلى أن توفي بالإسكندرية سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م)، ودفن في القاهرة، ومن مؤلفاته: (تفسير القرآن) لم يتمه، و (رسالة التوحيد) و (شرح نهج البلاغة) وغيرها.
يُنظر: الأعلام (٦/٢٥٢)، ومعجم المؤلفين (٣/٤٧٤)، ومعجم المفسرين (٢/٥٦٦).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جمع السيد محمد رشيد رضا (٢/٦٤٣).

(٣) المصدر السابق (٢/٦٤٣).

(٤) المصدر السابق (٢/٦٤٤).

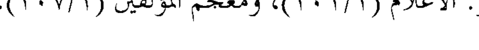


مما جَعَلَ دروسه في تفسير كتاب الله تعالى وفق هذا المنهج الجديد، الذي وصفه الشيخ المراغي (١) بقوله: " وكانت دروسه مثلاً عالياً في طريقة الإلقاء والتفهيم، وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب، وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته، والفقيه رغبته، والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم... وليس في رجال تفسير كتاب الله من يُضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع وفي تصوير هدى القرآن وفي فهم أغراض الدين العامة " (٢).

ويصف أحمد أمين (٣) طريقة الشيخ محمد عبده في تفسيره للقرآن فيقول: " كان يقرأ الآية، فإذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً، عارضاً ما ورد في القرآن في موضوعها، مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فسادٍ ودخيل، وإذا اتصلت الآية بالأخلاق أبَان أثر هذا الخُلق في صلاح الأمم وضياعه في فسادها، وإذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الأمم، مسترشداً بالواقع، مستشهداً بما يجري في العالم في بيانٍ متدفق، ولسانٍ ذَلِق، وصوت جميل أخّاذ، فهو تفسير عملي، يشرح الواقع ويبيّن سببه، وهو أخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الإسلام، ويبين أنها منبع السعادة في كل العصور، وهو روحاني يدعو إلى السمو بالنفس إلى العالم العلوي،

(١) هو: أحمد بن مصطفى المراغي، مُفَسِّر مصري، تَخَرج من دار العلوم، ثم درَّس الشريعة الإسلامية بها، وعُيّن أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون في الخرطوم، وتوفي في القاهرة سنة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م)، ومن مؤلفاته المطبوعة: (الحسبة في الإسلام)، و (الوجيز في أصول الفقه)، و (تفسير المراغي) في ثمانية مجلدات.
يُنظر: الأعلام (١/٢٥٨)، ومعجم المؤلفين (١/٣٠٥)، ومعجم المفسرين (١/٨٠).

(٢) مجلة الرسالة، عدد ٤٢٠ سنة (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م)، مقال بعنوان: (الشيخ محمد عبده).

(٣) أحمد أمين، كاتب وأديب معروف، ولد في القاهرة، ودرَسَ في الأزهر، ومدرسة القضاء الشرعي فتخرج منها قاضياً، واشتهر ببحوثه الأدبية ومقالاته المتنوعة، وقد شَغَل مناصب عدة، آخرها مدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، توفي في القاهرة سنة (١٩٥٤م)، ومن مؤلفاته المطبوعة: (فجر الإسلام)، و (ضحى الإسلام)، و (ظهر الإسلام)، و (فيض الخاطر) وغيرها.

يُنظر: الأعلام (١/١٠١)، ومعجم المؤلفين (١/١٠٧).



وينـــزه الله عمّا دخل على العقيدة من فساد الإشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور، وإقامة الموالد، ونذر النذور... " (١).

ولعل الأجزاء الأربعة الأولى من تفسير المنار، وتفسيره لجزء عمَّ، خير شاهدٍ على هذه الطريقة التي وصفها الشيخ المراغي وأحمد أمين، والتي من أبرزها تنـــزيل الآيات على الواقع.

إلاّ أنَّ هذه الطريقة التي سار عليها محمد عبده لم تحظ بقبولٍ كبيرٍ لدى الكثير من علماء ذلك الزمان الذين آثروا الطريقة التقليدية في تفسير القرآن على غيرها، وقد أدى هذا الأمر إلى صراعاتٍ فكريةٍ، ونزاعاتٍ قويةٍ بينه وبينهم، نتج عنها التشنيع والتفسيق والتكفير (٢).

ولا أنسى أن أُنبه على أنَّ محمد عبده قد أخذ قضية التنـــزيل واستفادها من أستاذه جمال الدين الأفغاني، الذي نادى إلى باستثمار النص القرآني وجعلِه حلاً لقضايا الواقع وتحدياته.

إلاَّ أنَّ الأفغاني لم يكن له نتاجٌ ظاهرٌ في التفسير يجعلنا نَحكم على هذا القدر من التنـــزيل الذي اتخذه، سوى ما سَطَّرَه من المقالات في صحيفة (العروة الوثقى)، التي كانت موضوعاتها تتناول بعض الآيات التي نَزَّلَها على واقعه السياسي فحسب ؛ وذلك نظراً لاهتمامه بهذا الجانب دون غيره من الجوانب (٣)، " فقد كانت الآية القرآنية تُثير في نفسه معاني متجددة تتصل بالواقع السياسي الأليم الذي تحياه الأمة، فيتسع مفهوم المعنى القرآني عنده بالتطبيق الماهر... " (٤).

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص (٣٢٩ - ٣٣٠).

(٢) يُنظر: مجلة الرسالة، عدد ٤٢٠ سنة (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م)، مقال بعنوان: (الشيخ محمد عبده).

(٣) يُنظر: مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، عدد ٤٧ رمضان سنة ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، مقال بعنوان: (ملامح التجديد في فكر الأفغاني في التعامل مع القرآن الكريم وأثره في منهج التفسير في العصر الحديث)، للدكتور زياد بن خليل الدغامين ص (٥٦).

(٤) قضايا إنسانية في أعمال المفسرين، عفت الشرقاوي ص (٢٣٠).



بخلاف تلميذه محمد عبده فإنَّ له نتاجاً ظاهراً في التفسير لا بأس به، قد استخدم فيه التنـــزيل على جميع ساحات الواقع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

مما جعلني أُرَشحُه رائدَ التنـــزيل في العصر الحديث عن أُستاذه جمال الدين الأفغاني.

فيكون الأفغاني بهذا طارحَ البذرة ومُلْقِيها، ثُمَّ أتى تلميذه فتعاهدها بالسقاية والرعاية حتى نَمَت وترعرعت على يديه، فقطف ثمارها تلاميذه من بعده ومن تأثر بمنهجه، أمثال الشيخ محمد رشيد رضا، وأحمد مصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي (١)، وسيد قطب، وعبد الرحمن الدوسري (٢) وغيرهم.

وبالرغم من هذا الثراء الذي صنعته هذه المدرسة في الحركة التفسيرية إلاَّ أنها خَبَّطَت بعض الشيء في تنـــزيلاتها، وذلك نظراً لِمُخالفتها بعضاً من ضوابط التنـــزيل(٣).

---

(١) محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، مجاهد من كبار علماء الجزائر، ورئيس جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد، وكانت له مواقف صلبة وشجاعة في محـــاربة الاستعمـــار، توفي سنة (١٣٨٥هـــ)، ومن مؤلفاته: (عيون البصائر)، و (شعب الإيمان)، و (أسرار الضمائر العربية) وغيرها.

يُنظر: الأعلام (٥٤/٦)، معجم المؤلفين (١٦٢/٣).

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلف الدوسري، ولد في البحرين سنة (١٣٣٢هـــ)، ثم انتقل مع والديه إلى الكويت فنشأ وَتَعَلَّم فيها على عددٍ من العلماء أمثال الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان، وكان رحمه الله جريئاً في قول الحق، غيوراً على أمته، حريصاً على نصرتها، توفي سنة (١٣٩٩هـــ)، ومن مؤلفاته: (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم)، و (تفسير آية الكرسي)، و (تأملات في أحسن القصص).

يُنظر: تكملة معجم المؤلفين لمحمد خير رمضان يوسف ص (٢٨٣ - ٢٨٤)، من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة، للمستشار عبد الله العقيل ص (٤٣٣ - ٤٤٢).

(٣) تُنظر بعض هذه الضوابط في المبحث الرابع من هذا الفصل.



والموقف الذي يجب أن يُتخذ حيالَ هذا الأمر هو أن نشكر لهم قصب السبق في تطوير قضية التنــزيل ونثبته لهم، دون أن نُسلِّم بجميع التنــزيلات التي اتخذوها.

ومن ثَمَّ فإنه يتضح مما سبق أنَّ قضية التنــزيل قد انبثقت من مصر التي تُعتبر منارةً للعلم ومقصداً لكل من يطلبه من أبناء المسلمين في تلك الفترة، بل من الأزهر الشريف الذي يُقدِّر الناسُ دوره الريادي في نشر الثقافة الإسلامية والدفاع عنها على يد الشيخ محمد عبده، والذي ظل يُفسِّر القرآن فيه ست سنوات بطريقته العجيبة.

ويمكن أن تُستخلص أهم الأسباب التي أدت إلى تطور قضية التنــزيل وانتشارها بشكل ظاهرٍ وملموس في العصر الحديث عن غيره من العصور فيما يلي:

١- " **الطبيعة العامة لهذا العصر**، حيث شهد انتفاشَ الكفر، وانتشارَ الأفكارِ والآراء الكافرة، ووصولَ هذه الأفكارِ إلى عقولِ ومجتمعات بعض المسلمين، وقيامَ الكفار بتصعيد الغزو الفكري ضد المسلمين.

فدعت هذه الحاجةُ المفكرين والعلماء الإسلاميين المعاصرين إلى التوجه إلى القرآن وتدبره ؛ لاستخراج حقائقه ودلالاته، التي يتم بها تفنيدُ الأفكار والمبادئ الغازية الجاهلية ومواجهتُها، ووقاية المسلمين من شرورها.

٢- **الوضعُ العامُّ المُحزِنُ للمسلمين في هذا العصر**، حيث شهدَ العصرُ الحديث انحسار الإسلام عن واقع كثير من المسلمين ؛ إذ تمَّ القضاء على الخلافة الإسلامية، وأُقصي الإسلام عن الحكم والتوجيه، ونشأت مناهج الحياة في بلاد المسلمين على أُسسٍ غير إسلامية، وأصبح الإسلام غريباً في مؤسسات المسلمين ومجتمعاتهم.

وقد دفعت هذه الظاهرة الدعاة العلماء إلى العودة إلى القرآن، ودعوة المسلمين إلى الالتزام به، وتطبيق توجيهاته ومبادئه في حياتهم" (١) .

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق - بتصرف - , للدكتور صلاح الخالدي ص (٤٧) .



٣- **حاجة الأمة إلى معرفة ميدان الإعجاز في القرآن الكريم** الذي يتمثل في وجوهٍ عدةٍ، منها صلاحيته عبر الأيام والدهور، وهذا سِرٌّ من أسرار خلوده.

مما دعا هؤلاء المفسرين إلى إثبات هذه الصلاحية من خلال تنـــزيل الآيات على الواقع، وربط قضاياه بكتاب الله تعالى .

وتعد هذه الأسباب - أيضاً - من الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي في تلك الفترة، ولذلك فإني أُحب أن أختم هذا المبحث بذكر العلاقة بين التفسير الموضوعي وبين تنـــزيل الآيات على الواقع !.

فأقول: - وبالله التوفيق - إنَّ كليهما خرج من رَحِمٍ واحد، حيث كانت نشأهما تتلازم في فترةٍ ومكانٍ واحد، فهما إفرازٌ من إفرازاته، إلاَّ أنَّ قضية التفسير الموضوعي أعمُ من التنـــزيل ؛ لأنها تشملهما معاً، ولأنَّ التنـــزيل هدفٌ من أهداف التفسير الموضوعي.

فقد يجمع المُفَسِّر آيات الربا مثلاً ويُفسِّرُها وفق منهج التفسير الموضوعي، ثُمِّ يتوجه بعد ذلك إلى كشف الواقع وما ابتُلي به المسلمون من انتشار صور التعامل بالربا ونحو ذلك، بخلاف التنـــزيل فإنه خاصٌ بقضية تنـــزيل الآيات على الواقع فحسب.



المبحث الثاني

أنواع تنزيل الآيات على الواقع

إنَّ من يتأمل قضية تنـــزيل الآيات على الواقع من خلال عمل المُفَسِّرين يُلاحظ أنها تتنَوّع بأنواعٍ عِدة، يُمكِن حَصْرُها في اعتبارين:

الأول: أنواعه باعتبار التصريح والتلميح وهو على نوعين:

١- **تنـــزيل التصريح:** وهو أن يُصَرِّح المُفَسِّر بأنَّ معنى هذه الآية حاصلٌ في زمنه وواقعه، فيُعَبِّر عنها أثناء تفسيره للآية بقوله: ".. كما هو الحاصل في زماننا"، أو ".. وهذا ما يكون في مجتمعنا "، ونحو ذلك من العبارات التي تُفيد تصريح المُفَسِّر بما يكون في واقعه مشابهاً لِمَا كانت عليه الآية الكريمة.

وهذا النوع كثيرٌ في التفاسير التي اعتنت بقضية التنـــزيل، بل هو الشائع والذائع فيها ولذلك يصعب حصرها، ومثاله ما جاء عن الإمام المراغي (ت: ١٣٧١هـ) رحمه الله لَمَّا مَرَّ على قولـــه تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) نَزَّل الآية على مـــا كان في واقعه من إعراض بعض الناس عن الاستماع للقرآن عند تلاوته فقال: " وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يُقرأ فيها القرآن كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة فمكروه كراهة شديدة، ولا سيما لمن كانوا على مقربة من التالي، ولا يجوز لقارئ أن يقرأ على قومٍ لا يستمعون له، وإن كان أكثرهم يستمع ويُنصت فشذ بعضهم بمناجاة صاحبه بالجنب بلا تهويشٍ على القارئ ولا على المُستمعين كانت المخالفة سهلةً لا تقتضي ترك القراءة، ولا تنافي الاستماع"(١).

---

(١) تفسير المراغي (٣/٤٧٥).



وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) "...فأين هذا مما يفعله جهلة زماننا الذين يجأرون في ذكرهم بأصواتٍ منكرةٍ يستقبحها الدين والعقل والعُرف، ولا علاج لِمثل هذا إلا حملة نكراء من رجال الدين عليهم حتى يتفهموا ما طلبه الدين وما رمى إليه من التضرع إليه تعالى خُفيةً ودون الجهر بالقول" (١).

٢- **تنــزيل التلميح**: وهو أن يُشير المُفَسِّر إلى أنَّ معنى هذه الآية حاصلٌ في زمنه وواقعه دون أنَّ يُصَرِّح بذلك بل يُورِده على سبيل التعريض والتلميح، ولعل السبب في ذلك - والله أعلم - يرجع إلى الحالة السياسية في تلك الفترة التي لا تسمح بالإفصاح عن ما يكون فيها من القهر والظلم، والفساد والإفساد، والمخالفات العقدية والاجتماعية ونحو ذلك، مما يضطر المُفَسِّر إلى عدم التصريح خشية الإيذاء والتنكيل، ومنعاً للفتنة وحقناً لدماء المسلمين، فيتخذ القرآن سبيلاً وطريقاً لتوجيه الناس من خلاله وربطهم به.

ومثاله: ما كان من التابعي الجليل مجاهد بن جبر (ت: ١٠٤هـ) " حينما كان واقعه يَعُجُ بالاضطرابات السياسية، والصراعات الحزبية التي نَتَجَ عنها القهر والظلم، والقتل والفساد بين المسلمين أنفسهم.

وهذا ظاهرٌ من خلال نَفَسه في تفسيره لبعض الآيات منها قوله تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٢٤) حيث قال: " لا أجعلُ إماماً ظالماً يُقتدى به ! (٢)، ونَقَلَ تفسير ابن عباس رضي الله عنه لها فقال: "ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانقضه" (٣).

فيُلاحظ أنَّ من أسباب تفسيره لهذه الآية، واختياره لتفسير ابن عباس رضي الله عنه

(١) تفسير المراغي (٣/٤٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٥١٢)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٥٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٥١٣).



عن غيره من المفسرين كان لمناسبة واقعه الذي كان يتولى كِبَرَ الظلم فيه الحجاج بن يوسف الثقفي (ت: ٩٥هـ)، فلا عهد له ولا معاهدة.

وقد تأول مجاهد رحمه الله هذا التفسير وترجمه إلى موقف عملي في الثورة التي شارك فيها هو وسعيد بن جبير (ت: ٩٤هـ)، مما جعل هذا العمل يُغضب الحَجَّاج ويتساءَل: كيف ينقضون البيعة المأخوذة لأمير المؤمنين ؟ (١).

وربما يُشَمُّ من عبارة مجاهد رحمه الله ما وقع في الناس من الظلم وسفك الدماء على الحَجَّاج ظلماً وبلا وجه مشروع، فيرى أنَّ هذا العمل هو عين الإسراف، وأن فَعَلَتَه هم المسرفون، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ (غافر: ٤٣) " هم السفَّاكون للدماء بغير حقها " (٢).

" وواضح أن معنى الآية أعم مما قال مجاهد، لكن لحضور القضية جعلها ملءَ الوجدان والفؤاد، وجعلها ملتبسةً بالآية كأنها نزلت لها " (٣).

فمن يتأمل في هذه النصوص التي أوردها مجاهد رحمه الله يُلاحظ أنه لم يُصَّرِح باسم الحَجَّاج وأمثاله في عصره الذين ربما تَتنـــزل عليهم هذه الآيات، وإنما يُعرف هذا التنـــزيل وتُشَمُّ رائحتُهُ من خلال النظر في سيرة المُفَسِّر وعصره.

ومثاله أيضاً ما ذكره سيد قطب رحمه الله لَمَّا ذَكَرَ - في قصة نبي الله شعيب عليه السلام مع قومه - قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأعراف: ٩٠) حيث نَزَّل الآية على ما يُعانيه هو بنفسه من المضايقات والمؤامرات التي تُحاك له من قِبَل الشانئين والخصوم فقال: " إنها ملامح المعركة التي تتكرر ولا تتغير، إنَّ الطواغيت يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة، فإذا استعصم

(١) تُنظر تفاصيل هذه الثورة في: البداية والنهاية (٩/٣٧ - ٥٤).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/٣٣٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٣/٤٣) إلى الفريابي، وسعيد ابن منصور، وعبد بن حُميد.

(٣) مجاهد المُفَسِّر والتفسير، للدكتور أحمد إسماعيل نوفل ص (٣٩١).



بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يُرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل، تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنوهم عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثم بالبطش والعذاب، إنهم لا يملكون حُجة على باطلهم، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمُصِّرين على الإيمان، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان " (١).

وبهذا النص يتضح مدى التلميح الذي أشار إليه صاحبه مما كان يُعانيه من الوعيد والتهديد، ثم البطش والتنكيل عَلّه أن يتخلى عن الدعوة إلى الله تعالى أو يرجع عما يقول ويفعل، إلا أنه كان مُصِّراً على الإيمان والإخلاص لله تعالى.

مما اضطر الخصوم إلى التحول وفرض القوة والقهر على أهله وإخوانه رجاء أن يسترحموه ويُؤثِّروا عليه فينكص إلى ما يريدون... ولكنه لم يخضع لذلك، بل كان راسخاً رسوخ الجبال لا يصده عن دعوته شيء، ثابتاً على مبادئه التي جرّته إلى حبل المشنقة، فمات بدنه، وبقيت أفكاره تنتفض وتعيش فتدوي في الآفاق وتفعل الأفاعيل (٢).

وقد يكون هذا التنـــزيل الذي سِيق على سبيل التعريض والتلميح له أسبابٌ أُخرى جعلت المُفسِّر يفضّل هذا النوع على غيره من أنواع التنـــزيل، منها الحرص على التقريب بين طوائف المسلمين وعدم التفريق بينهم، وذلك بعدم التصريح بأصحاب الآراء والمعتقدات الباطلة من بعض الطوائف المعاصرة التي تُنسب إلى الإسلام وإنما يُشير إليها تلميحاً لا تصريحاً.

ومن ذلك مـــا ذكره الشيخ شلتوت (ت: ١٣٨٣هـــ) في تفسيره عند قوله تعالى:

---

(١) الظلال (١٣٢٢/٣).

(٢) تُنظر تفاصيل هذه الأحداث في كتاب (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) للدكتور صلاح الخالدي ص (٤٧١ - ٤٧٥).



﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) حيث بيَّن أن هذه الآية الكريمة دلت على سمو مكانة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من وجوه عدةٍ فذكرها... ثم قال بعد ذلك: " أظُنُّ أنَّ أحداً لا يستطيع بعد هذا أن يزعم لغير أبي بكر مكانة أبي بكر، ولكن النـــزعات السياسية أو العصبية تأبى إلاَّ أن تُثير الشبهات وتتناول المقامات..."(١).

فهذا النص مثلاً يُشير إلى طائفة الشيعة الذين يعتقدون بأنَّ علياً أحق بالخلافة من أبي بكر ـــ رضي الله عنهما ـــ ولم يُسمهم شلتوت لأنه كان حريصاً على نظرية التقريب بين المذاهب والطوائف، والدليل على هذا أنه لَمَّا أمَّ أحد كبار علماء الشيعة الناس في المسجد الأقصى أثنى على هذا العمل وأبدى فرحه وسروره، وكان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٥) حيث قال: " وما كان أجمل صورة المسلمين وقد اجتمعت وفودهم في المؤتمر الإسلامي بفلسطين في المسجد الأقصى، فصلى بهم أحد كبار مجتهدي الشيعة الإمامية فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (٢) لا فَرْق بين من يُدعى بِسُني، ولا من يُدعى بشيعي، وكانوا جميعاً صفوفاً متراصةً خلف إمامٍ واحد، يدعون رباً واحداً، مُتجهين إلى قِبلةٍ واحدة... " (٣).

ومِن ثَمَّ فإنَّ هذا النوع من التنـــزيل وهو ما كان على سبيل التلميح والتعريض، يحتاج في استخراجه إلى نظرٍ وتأملٍ دقيق أكثر من غيره، ولا بد أن تكون سيرة المُفَسِّر

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص (٦٤٧).

(٢) **هو**: محمد حسين كاشف الغطاء، ولد بالنجف سنة (١٢٩٤هـ)، وتلقى علومه فيها، وتصدَّر للتدريس، وأسهم في الثورة العراقية ضد الاستعمار البريطاني، وتوفي في إيران سنة (١٣٧٣هـ)، ومن تصانيفه: (المراجعات الريحانية)، و (أصل الشيعة وأصولها)، و (الدين والإسلام) وغيرها.
يُنظر: معجم المؤلفين (٣/٢٥٦).

(٣) تفسير القرآن الكريم ص (١٣٤).



وعصره حاضرةً عند المُستخرج حتى تُعينه على معرفة السبب الذي من أجله اختار المُفسِّر هذا القول من التفسير على غيره، كما هو الحاصل عند مجاهد حينما اختار رأي شيخه ابن عباس على غيره من المُفَسِّرين في الآية السابقة، أو على معرفة المعاناة التي من أجلها استخدم المُفَسِّر هذا التنـــزيل دون غيره كما هو الحاصل عند صاحب الظلال، أو لأسباب أخرى، تُعرف من ثنايا الخطاب.

الثاني: أنواعه باعتبار الجزئية والكلية وهو على ثلاثة أنواع:

١- **تنـــزيل كُلي**: وهو أن يأتي المُفَسِّر بآيةٍ وفي الواقع ما يُطابق معناها تماماً، ومثـــاله ما ذكـــره القرطبي (ت: ٦٧١هـــ) رحمه الله عند قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٥) حيث ذَكَرَ بعض الروايات والتي منها إحالة امرأة أبي لهب عن رؤية النبي ﷺ لَمَّا عَلِمَت بنـــزول سورة المَسَد بشأنها وزوجها، فقرأ النبي ﷺ الآية السابقة فاعتصم عنها.

وذَكَرَ القرطبي رحمه الله مواقف حَصَلَت لبعض الصالحين اعتصموا بهذه الآية وغيرها عن رؤية الأعداء لهم.

ثُمَّ بيَّن أيضاً أنَّ من الآيات التي يَتمُّ الاعتصام بها من الأعداء أوائل سورة يس والتي من ضمنها قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (يس: ٩) وأنَّ النبي ﷺ قد اعتصم بها لَمَّا أراد أن يُهاجر إلى المدينة، حيث خَرَجَ ﷺ فأخذ حَفْنةً من ترابٍ في يده، وأخَذَ الله عز وجل أبصارَهم عنه فلا يَرَوْنه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات فَعَصَمَه الله منهم.

وبعد ذلك نَزَّل القرطبي رحمه الله هذه الآية على موقفٍ قد حَصَلَ له شخصياً لَمَّا جَدَّ الأعداء في طلبه فقال رحمه الله: " ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فَعَبَرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول



للآخر: هذا دِيَبْله (١) - يعنون شيطاناً - وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك " (٢).

٢- **تنـــزيل جُزئي**: وهو أن يأتي المُفسِّر بآيةٍ وفي الواقع ما يُطابق جُزءًا من معناها، ومثاله ما ذكره الفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ) عنـد قـوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ (التوبة: ٣٤) حيث نَزَّل جُزءًا من الآية، بالرغم من أنها تحتوي على أكثر من جُزء (كالصد عن سبيل الله، وكنـــز الذهب والفضة، وترك النفقة في سبيل الله تعالى) إلاَّ أنه اقتصر على جُزءٍ منها وهو أكل أموال الناس بالباطل فقط، ونَزَّله على واقعه وزمنه دون التنـــزيل لبقية أجزاء الآية فبيّن حال رؤساء اليهود والنصارى وما يتصفون به من الطمع، والحرص على أخذ أموال الناس بغير حق، ثُمَّ نَزَّل هذا المعنى على ما يكون في مجتمعه، وما يقوم به بعض الناس في زمانه من حبهم للمال وحرصهم عليه فقال رحمه الله: "ولعمري من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وَجَدَ هذه الآيات كأنها ما أُنزِلَت إلا في شأنهم وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يَدَّعي أنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين، حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله" (٣).

(١) لفظة فرنسية معناها جني أو شيطان (diable).
يُنظر: الكامل للجيب قاموس فرنسي - عربي، للدكتور يوسف محمد رضا ص (٢٣٤).

(٢) تفسير القرطبي (٢٣٦/١٠).

(٣) تفسير الرازي (٣٤/١٦).



٣- **تنـــزيل على ما يُخالف معنى الآية**، ويستخدمه المُفَسِّر إذا وَجَدَ في واقعه أحوالاً حثَّ القرآن على خلافها أو العكس، ويُسمى أيضاً بـــ (التنـــزيل العكسي)، ومثاله ما كان يشتكي منه أبو حيان (ت: ٧٤٥هـــ) رحمه الله مـــن أهل زمانه بمخالفتهم لكثيرٍ من أوامر الله تعالى، والتي منها الجهر بالدعاء إلى الله تعالى بطريقة بدعيةٍ تُخالف شرع الله تعالى، ففي قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥) يُلاحظ أنه قد نَزَّلها على ما يكون في واقعه فقال رحمه الله: " ولو عاش الحسن (١) إلى هذا الزمان العجيب الذي ظهر فيه ناس يتسمون بالمشايخ، يلبسون ثياب شهرةٍ عند العامة بالصلاح، ويتركون الاكتساب، ويُرَتِّبون لهم أذكاراً لم ترد في الشريعة، يجهرون بها في المساجد، ويجمعون لهم خداماً يجلبون الناس إليهم لاستخدامهم، ونبش أموالهم، ويُذيعون عنهم كرامات، ويرون لهم منامات يُدونونها في أسفار، ويحضون على ترك العلم والاشتغال بالسنة، ويرون الوصول إلى الله بأمور يقررونها من خلوات وأذكار لم يأت بها كتاب منـــزل، ولا نبي مُرسَل... " (٢).

وأُحِبُ أن أُنَبه على أنَّه قد تجتمع بعض أنواع التنـــزيل في مثال واحد، فقد يكون في المثال الواحد تـــزيل على سبيل التصريح ويكون كُلياً، أو تنـــزيل على سبيل التلميح ويكون جُزئياً.. وهكذا.

---

(١) ساق أبو حيان هذا الكلام تعليقاً على كلام الحسن البصري (ت: ١١٠هـــ) رحمه الله تعالى والذي نصه: " أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عملٌ يقدرون أن يكون سِراً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم صوتٌ إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم ".

(٢) البحر المحيط (٣١٢/٤ - ٣١٣).



المبحث الثالث

فوائد تنزيل الآيات على الواقع وحاجة الناس إليه

إنَّ قضية تنـــزيل الآيات على الواقع عند المفسرين تُعتبر من القضايا المهمة لدى الناس؛ إذ أنها تكشف لهم فوائد وطرائف يصْعُب الوقوف عليها إلا بعد بحث ونظرٍ دائمٍ في بطون الكتب والمصنفات، والناس في أَمَسِّ الحاجة إلى التعرف على هذه الأمور - لا سيما في هذه الأزمان المعاصرة التي بَعُدوا فيها عن كتاب ربهم سبحانه - حتى يتعلموا الطُرُق والسُبُل المعينة إلى العودة إليه.

وقد حرصت في هذا المبحث أن أستظهر بعض الفوائد التي يستفيد الناس منها وذلك بالنظر في قضايا التنـــزيل من خلال بعض كتب التفسير التي عُنيت بذلك وهي الآتي:

١- **توثيق أبرز الأحداث التأريخية في عصر المُفَسِّر**، فإنه يُعتبر جزءًا من مجتمعه يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويُعايش قضاياهم مما يجعل القارئ يُدرِك بجلاءٍ هذا التأثر في التفسير.

ويرى أحمد أمين أنَّ: " التفسير كان في كل عصر مرآة لعصره متأثراً بالحركة العلمية فيه، وصورة منعكسة لِما في العصر من آراء ونظريات علمية، ومذاهب دينية، حتى لتستطيع إذا جمعت التفاسير التي أُلفت في عصرٍ من العصور أن تبيّن فيها مقدار الحركة العلمية، وأي الآراء كان سائداً شائعاً، وأيها كان غير ذلك " (١).

كما يذهب الدكتور صلاح الخالدي إلى أنَّ من أراد أن يُؤرخ لحالة المسلمين الثقافية والاجتماعية، والاعتقادية، والأخلاقية، والفقهية، والمذهبية، فإنه يستطيع أن

---

(١) فجر الإسلام ص (٢٠٧).



يستخرج الملامح العامة لتلك الحالة في كل عصرٍ، من خلال دراسته الفاحصة لتفاسير ذلك العصر (١).

وهذا الكلام ليس على إطلاقه، فهناك تفاسير قد كُتبت بنَفَس عصرٍ آخر غير العصر الذي عاش المُفَسِّر في كنفه ؛ نظراً لتأثره بأسلوب ومنهج ذلك العصر، كما هو الحاصل في تفاسير عصر الانحطاط.

٢- **معرفة موقف المُفَسِّر من هذا الحَدَث النازل** سواءً كان بالتفاعل معه ومحاولة علاجه أو بالإعراض والصد عنه سلباً ؛ وذلك للاستفادة من هذه التجارب والتصرفات في عصور مستقبلية، يكون فيها حوادث ومواقف شبيهة بما قبلها، والتاريخ يُعيد نفسه.

ومثاله ما كان من الإمام أبي بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ) رحمه الله لَمَّا مَرَّ على آية الحرابة وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (المائدة: ٣٣) ذَكَرَ حادثةً جَرَت له أثناء توليه القضاء فقال: " ولقد كنتُ أيّام تولية القضاء قد رُفع إليّ قومٌ خَرَجوا محاربين إلى رُفْقة، فأخذوا منهم امرأةً مغالبةً على نفسها من زوجها ومن جملة المسلمين معه فيها فاحتملوها، ثُمَّ جَدَّ فيهم الطَّلَب فأُخذوا وجيء بهم، فسألت من كان ابتلاني الله به من المفتين، فقالوا: ليسوا محاربين ؛ لأنَّ الحرابة إنما تكون في الأموال لا في الفروج.

فقلت لهم: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ! ألم تعلموا أنَّ الحرابة في الفروج أفحشُ منها في الأموال، وأنَّ الناس كلهم ليرضون أن تذهب أموالهم وتُحْرَب (أي تُسلب) من بين أيديهم ولا يُحْرَب المَرْءُ من زوجته وبنته، ولو كان فوق ما قال الله عقوبة لكانت لمن يَسْلب الفروج، وحسْبُكم من بلاء صُحْبة الجهال، وخصوصاً في الفُتْيا والقضاء " (٢).

(١) يُنظر: المنهج الحركي في ظلال القرآن ص (١٦٨).

(٢) أحكام القرآن (٢/٧٠ - ٧١).



وبهذا يتضح موقف ابن العربي من هذه القضية وكيف تَصَرَّف معها من خلال تنـــزيل آية الحرابة عليها ؛ إذ كان بها الحُكمُ والعلاج.

وكذلك ما كان من الإمام ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤١هـ) رحمه الله عندما مَرَّ في تفسيره على قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ١٨) حيث بيَّن أنَّ المساجد مخصوصةٌ لله تعالى يُقام فيها الصلاة والدعاء وقراءة العلم، وكل ما هو خالص لله تعالى، وأن لا يُتحدث بأمور الدنيا فيها، ولا تُتخذ طريقاً، ولا يُجعل فيها لغير الله نصيب، ثم ذَكَرَ حالة الناس في عصره وما اقترفوه من أعمال يَشينُ العمل بها في بيوت الله تعالى فقال رحمه الله: " ولقد قَعَدْتُ للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالْمَرِيَّةِ (١) مدةً، ثُمَّ رأيت فيه من سُوءِ خُلُق المتخاصمين وأيمانهم وفجور الخصام وعائلته، ودخول النسوان ما رأيت تنـــزيه البيت عنه فَقَطعتُ القعود للأحكام فيه " (٢).

٣- **تقريب معنى الآية لفهمها عند الناس**؛ وذلك لأنَّ تنـــزيل الآيـــات على الواقع له أثرٌ في فهم كلام الله تعالى، ومثال ذلك ما ذكره الأعمش في قراءته- بدون ألف وتنوين - لقوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ (البقرة: ٦١) حيث قال: "هي مصر التي عليها صالح بن علي (٣) " (٤) ويقصد به والي

---

(١) مدينة أندلسية على شاطئ البحر، أمر ببنائها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة (٣٤٤هـ) وكانت من أهم ثغور الأندلس الجنوبية، سقطت بيد الكفار سنة (٨٩٥هـ)، وهي الآن عاصمة الولاية المسماة بنفس الاسم: (ELMERIA).
يُنظر: معجم البلدان (٥/١١٩).

(٢) المحرر الوجيز (٥/٣٨٣).

(٣) **هو**: صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، من ولاة الدولة العباسية على مصر وكان ذلك في محرم سنة (١٣٣هـ)، في عهد الخليفة العباسي أبي العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.
يُنظر: ولاة مصر للكندي ص (١١٩)، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١/٣٢٣).

(٤) أخـــرجه ابن أبي حاتم في تفســـيره (١/١٢٤)، وأورده ابن عطية في المحـــرر الوجيز (١/٢٣٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/٧١).



مصر في ذلك العصر، فلمَّا خشي الأعمش (ت: ١٤٨هـــ) أن يضطرب الناس في المراد بمصر في الآية الكريمة قَرَّب لهم المعنى بما يناسب إدراكهم وفهمهم، وذلك بذكر أشهر رمزٍ في تلك البلاد وهو واليها الذي لا يخفى اسمه على أحد(١).

٤- **ربط المسلم المعاصر بكتاب الله تعالى،** وإزالة الفجوة بينه وبين القرآن، فإذا شاهد المسلم تنـــزيل الآيات عند المفسرين على واقعهم، استفاد منها وكانت له خير حافزٍ ومعينٍ على تنـــزيل الآيات على واقعه.

٥- **التعرف على سيرة المُفَسِّر الذاتية،** فقد يَنثُر المُفسِّر شيئاً من مذكراته الشخصية وما تشتمل عليه من أخبار في ثنايا الآيات المناسبة لتنـــزيلها على أحواله، فيجد فيها المَرءُ ما لا يجده في كتب التراجم المتخصصة في ذكر سِيَر الرِجال والعلماء.

وبهذا تكون السيرة الذاتية أوثق وأدق من السيرة الغيرية ؛ لأنَّ صاحب الحال أعرف بحاله من غيره.

ومن ثَمَّ فإنه يمكن للمرء أن يتعرف على سيرة المُفَسِّر الذاتية من خلال جمع شتاتها من التفسير وصَبِّها في قالبٍ واحدٍ بطريقةٍ يُراعى فيها التسلسل الزمني إنْ أمكن.

ومن تأمل كتاب ابن العربي الموسوم بـــ (أحكام القرآن) فإنه يُدرِك صدق ما ذكرت، حيث احتوى على العديد من الأحداث والمواقف الشخصية له، كالحديث عن وظائفه التي تقلدها، ورحلاته، وشيوخه... ونحو ذلك.

---

(١) اختلف العلمـــاء في تحديد مكان (مصر) التي في الآية، فمنهم من يقـــول: هي مصر من الأمصار، ومنهم من يقول: هي مصر المعروفة، وهو الذي رجحه الأعمش.
يُنظر: تفسير الطبري (٢/٢١ - ٢٥)، والدر المنثور (١/٣٨٧).



هذا بالنسبة لتفسيره الذي اقتصر فيه على آيات الأحكام فحسب، فما الشأن إذاً بتفسيره الكبير المسمى بـ (أنوار الفجر في مجالس الذكر) (١)، والذي يُتوقَع أن يكون مليئاً بسيرته وأحواله، علماً بأنَّ هذا الأمر ليس خاصاً بميدان التفسير فحسب، بل هو سمة عامةٌ في مؤلفاته.

إذا تبيَّنت هذه الفوائد التي استُقيت من تنـــزيل الآيات على الواقع، فإنه يبقى هناك سؤالٌ يحتاجُ إلى نظرٍ وتأملٍ للإجابة عليه:

هل قضية التنـــزيل التي يستخدمها المُفَسِّرون لها أثرٌ في معالجة الواقع ؟ !.

إن من يتأمل كتب التفسير التي تعتني بقضية التنـــزيل يُلاحظ أنها تُساق على سبيل السرد الوصفي - غالباً - للحَدَثِ وختمها بعبارات الأسى على حال ذلك الواقع، كالحوقلة والاسترجاع، أو بالفرح والاستبشار بما يُسعد ويُفرح ذلك المجتمع، دون إيجاد تحليلٍ لهذا الموضوع وبيان ملابساته وحلوله الناجعة.

فالجواب - والله أعلم - أنَّ الغرض من كتب التفسير هو بيان مراد الله تعالى وليست مظانَّ لعلاج قضايا العصر وتحليلها، بل ذلك يكون في كتب الحوادث والنوازل التي تؤرخ لتلك الفترة وتعالجها، ولذلك لم يُسهب المفَسِّرون في هذا التحليل بل اكتفوا

---

(١) وقد كتب الله لهذا الكتاب العظيم الشتات والضياع في عصر المؤلف، حيث قال في كتابه: القَبَس في شرح موطأ مالك بن أنس (٣/١٠٤٧ - ١٠٤٨): " وقد كنّا أملينا فيه (أي في التفسير) في كتاب (أنوار الفجر) في عشرين عاماً ثمانين ألف ورقة، وتفرقت بين أيدي الناس، وحصل عند كل طائفة منها فن، وندبتهم إلى أن يجمعوا منها ولو عشرين ألفاً، وهي أصولها التي ينبني عليها سواها، وينظمها على علوم القرآن الثلاثة: التوحيد، الأحكام، التذكير ؛ إذ لاتخلو آية منه بل حرف عن هذه الأقسام الثلاثة، إلاّ أن فساد الزمان بمواصلة الإخوان ومصاولة الأقران، وضرورة المعاش والرياش الملازمة للإنسان، قواطع تفي المتاع وتقطع أسباب الإمتاع.
وقد كُنَّا عوتبنا في إعراضنا عن مجموع في تفسير القرآن يثلج حرارة الصدور، ويُفرِج عن حزازات المصدور، فاعتذرت فما قُبل عذري، وقيل لي: قد شاهدناك تُملي فيه نيفاً على عشرين عاماً ما لو سطر لملأ النشر، وعجز عن تحصيله البشر.
فقلت: كان ذلك والشباب بنضارته، والعمر في عنفوانه، فأما الآن فقد ولّيا فقد ولّيت معهما.. ".



بتنـــزيل الآيات المناسبة عليه، تنفيساً لِما يجدونه في صدورهم من الفرح والسرور أو الهم والحُزن الذي يدور في واقعهم.

وهذا ما حَصَل للحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) رحمه الله لَمَّا مَرَّ في تفسيره الأثري - والذي يكاد يخلو من تنـــزيل الآيات على واقعه - على قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة: ٥٠) ذكر ما يكون في عصره من الحُكْم بغير ما أنزل الله وإيجادِ تشريعاتٍ بشريةٍ ما أنزل الله بها من سلطان - أسوقها بطولها لأهميتها ونفاستها - فقال رحمه الله: " يُنكر تعالى على من خَرَجَ عن حُكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستندٍ من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان (١) الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير " (٢).

(١) ويُسمى (جنكيز خان) وهو ملك التتار وسلطانهم الأول، الذي خرب البلاد، وأفنى العباد، واستولى على الممالك، وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين، فقدموه عليهم فهزم جيش الخطا واستولى على ممالكهم.. إلى أن وصل البلاد العربية فدخلها، وأذعن الناس بطاعته، ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره، وقتل المسلم أهون عنده من قتل البرغوث، وله شجاعة مفرطة، وعقل وافر ودهاء ومكر، وأول مظهره كان في سنة (٥٩٩هـ)، ومات في رمضان سنة (٦٢٤هـ).
يُنظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٣/٢٢ - ٢٤٤)، وشذرات الذهب (١١٣/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٤/٢).



فلّما كانت هذه القضية من أعظم القضايا في واقعه، ومما كان يُعانيه المجتمع الإسلامي في ذلك العصر من الأحكام الجائرة التي تُخالف شرع الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لم يتحمل إرجاعها إلى كتابه التأريخ الموسوم بـــ (البداية والنهاية) بل نَفَّسَ عن خاطره ببث جُزءٍ منها في هذا الموضع المناسب لها من التفسير، وأكمل بقية أحداثها في تأريخه (١).

وكون أكثر المفسرين لم يهتموا بقضية التنــزيل في تفاسيرهم فهذا لا يعني أنهم كانوا في معزلٍ عن معالجةِ قضايا واقعهم ؛ لأنَّ قضية التنــزيل ليست قياساً على هذا الأمر، بل المعيار في ذلك يعود إلى أمرين:

أُولاهما: النظر في سيرة المُفَسِّر وما كتبه المترجمون عنه ؛ لمعرفة ما إنْ كان المُفَسِّر مشاركاً في إصلاح واقعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الجهاد في سبيل الدين والذب عن حياضه باللسان والسنان، كما هو الحاصل للعز بن عبد السلام رحمه الله، فلو تَمَّ الحُكْم عليه من خلال تفسيره لكان الحُكْم خاطئاً ؛ لأنه قد عُرِف من خلال سيرته(٢) مدى حرصه على إصلاح واقعه ومجتمعه.

والثاني: النظر إلى كتب المُفَسِّر الأخرى، التي بسطت قضايا واقعه وأطالت النفس فيها عرضاً وتحليلاً وعلاجاً.

فالأستاذ سيد قطب رحمه الله لم يكتف في ظلاله بتنــزيل الآيات على قضايا واقعه فحسب بل ناقشها وعالجها في رسائله وكتبه الأخرى ككتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) الذي عالج فيه قضية الفقر الحاصلة في زمنه، وأنه لا يمكن التغلب عليها إلا باتباع المنهج الإسلامي القويم الذي بيَّنه الله تعالى في كتابه العظيم.

(١) يُنظر: البداية والنهاية (١٣/١٢٨).

(٢) يُنظر: طبقـــات المفسرين للـــداودي (١/٣٠٨)، وشذرات الـــذهب (٣/٣٠١)، ومعجم المفسرين (١/٢٨٧).



وبعد، فإني أختم هذا المبحث بمناقشةٍ هادئةٍ لنتيجةٍ قد تَوصل إليها الدكتور / زياد الدغامين حول موقف الإمام القرطبي رحمه الله من قضايا واقعه، حيث بيَّن أنَّ موقفه كان سلبياً تجاه الأوضاع السائدة في عصره، وأرجع هذه النتيجة لسببين اثنين هما (١):

السبب الأول: طبيعة الحياة التي ارتضاها القرطبي رحمه الله لنفسه، فقد غلب عليه الزهد في الحياة الدنيا مما كان له أثرٌ في انعزاله عن معالجة وتحليل مُشكلات عصره، ووصف العلاج القرآني لها، يشهد لهذا قول العلماء فيه: " كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المُشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجّه وعبادة وتصنيف " (٢).

ثُمَّ سَرَد الدغامين كلاماً ونقولات عن القرطبي تُلمِح نَدْبَه إلى العُزلة وترك الناس حالة ظهور الفتن، وفساد الزمان وتغيّر الإخوان.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أنَّ كون القرطبي رحمه الله كان زاهداً في الدنيا، مُشتغلاً بأمور الآخرة، فهذا لا يعني أنه كان منعزلاً عن واقعه، فكم من العلماء كانوا كذلك إلاَّ أنَّ بصماتِهم وآثارَهم الإصلاحيةَ والتوجيهيةَ على الواقع ظاهرةٌ وبينة.

فهذا ابن أبي زمنين (٣) رحمه الله قد وصفه جمع ممن ترجموا له بأنه من كبار الزهاد والعباد في زمانه.

---

(١) مجلة التجديد الماليزية، عدد (٤) ربيع الثاني، عام ١٤١٩هـ، مقال بعنوان: (البعد الواقعي في العمل التفسيري) ص (٦٩).

(٢) نفح الطيب للمقري (٢/٢١٠).

(٣) **هو:** محمد بن عبد الله بن عيسى المُري، أبو عبد الله الألبيري، المعروف بابن أبي زمنين، مُفَسِّر ومُحدِّث وشاعر، توفي سنة (٣٩٩هـ)، وله تصانيف كثيرةٌ منها: (مختصر تفسير يحي بن سلاَّم)، و (أصول السنة) وغيرها.
يُنظر: طبقات المُفَسِّرين للسيوطي ص (٩٠)، طبقات المُفسِّرين للداودي (٢/١٦١)، ومعجم المفسرين (٢/٥٥٨).



وبالرغم من ذلك، فقد كان يقوم بخدمة الناس ودعوتهم، مواسياً لهم بالجاه والمال.

وأكتفي هنا بكلام ابن فرحون رحمه الله الذي قاله فيه: " كان من كبار المُحدثين، والعلماء الراسخين... مع النُسك والزهد والاستنان بسنن الصالحين، أمةً في الخير، عالماً عاملاً، متبتلاً متقشفاً، دائم الصلاة والبكاء، واعظاً مُذكِّراً بالله، فاشي الصدقة، مُعيناً على النائبة، مواسياً بجاهه وماله ذا لسان وبيان، تُصغى إليه الأفئدة... " (١).

فمن يتأمل هذه العبارات التي تدل على الفعل والعمل (أمةً في الخير - عالماً عاملاً -واعظاً مُذكراً بالله - فاشي الصدقة - مُعيناً على النائبة - مواسياً بجاهه وماله)، يُدرك أنَّ ابن أبي زمنين رجلٌ جمع بين الزهد والإقبال على الآخرة وبين دعوة الناس وإصلاح واقعهم.

وفوق ذلك كان له من التصنيف نصيبٌ ومشاركةٌ في إصلاح الواقع، فقد ألَّف كتاباً بعنوان (قدوة الغازي) (٢) تحدث فيه عن أحوال الجهاد وأحكامه، وحاجة الأمة إليه.

إن تَوَجّه القرطبي رحمه الله للتصنيف هو نفع للأمة، ومشاركةٌ في تعليم الناس حتى يصلح حالهم وواقعهم. وأما كلامه رحمه الله حول أحاديث العزلة فإنَّ ندبه إلى العُزلةِ غير واضح ولا صريح. ولو سلَّمنا بأنه واضح وصريح، فالسؤال: هل حَصَلَ من القرطبي أن اعتزل الناس وترك الفتن التي تفشت في واقعه ؟ !.

فالجواب: أنه لو كان كذلك لَمَا وجدنا في تفسيره وصفاً لواقعه، وأحوال الناس فيه، مما يدل دلالة واضحة على اطلاعه بما يجري في أوساط الناس وواقعهم، ولو كان كذلك أيضاً لَمَا سافر إلى الديار المصرية (٣) والتي كانت مليئة بألوان وغرائب الحياة كما وصفها بنفسه.

---

(١) الديباج المذهب (٢/٢٣٢).

(٢) طَبَعَته دار الغرب الإسلامي بتحقيق عائشة السليماني.

(٣) تُنظر شكوى الإمام القرطبي من أهل زمانه في المبحث الثاني من الفصل الثالث ص (١١٨).



وأما السبب الثاني - ويتصل بالسبب الأول - الذي ذكره الدغامين فهو: " تأثر القرطبي رحمه الله بأحاديث الفتن وأشراط الساعة، وقد تجلّى هذا في كتابه (التذكرة)، فقد كان يُبيّن أنَّ كثيراً من الفتن وأشراط الساعة قد ظهر في عصره، ومن ثَمَّ فإنَّ الساعة وشيكة الوقوع " (١).

ثُمَّ سَرَدَ أيضاً سبعة نصوصٍ للقرطبي تظهر تأثره بأحاديث الفتن وأشراط الساعة.

فأقول - والله أعلم -: إنَّ هذا التأثر الذي حَصَلَ له بأحاديث الفتن وأشراط الساعة، ليس بدعاً من الأمر بل إن هناك من العلماء مَنْ تكلَّموا عن أشراط الساعة، ونبهوا أنَّ بعضها حاصلٌ في زمانهم، ومع ذلك فلهم قصب السبق في إصلاح واقعهم.

وقال الدغامين أيضاً بعد ذكر السببين السابقين: " أضف إلى هذين السببين طبيعة المنهج التقليدي الذي رسمه القرطبي في تفسير القرآن، والذي قَصُر البحث فيه على قضايا العلم لا قضايا الواقع " (٢).

فيُلاحظ من كلام الدكتور أنه حَمَّل القرطبي رحمه الله ما لا يحتمل ؛ إذ أنه لم يشترط في تفسيره الخوض في غمار الواقع، أو معالجة قضاياه.

بل جعله تفسيراً علمياً يغلب عليه اللون الفقهي، تطرق من خلاله إلى بعض قضايا واقعه، ولا يقدح في هذا التفسير أن تناوله لقضايا عصره لم تتجاوز عشرين صفحة كما ذكر الدكتور الدغامين ؛ لأن هذه العشرين صفحة ليست من صميم عمله في التفسير بل هي نوعٌ من التنفيس كما سبق بيانه، وهذا العمل يغلب على كتب التفسير.

---

(١) مجلة التجديد ص (٧٠).

(٢) مجلة التجديد ص (٧٣).



المبحث الرابع

حكم تنزيل الآيات على الواقع وضوابطه

لقد حَثَّ الله - على التدبر والتأمل في كتابه الكريم في أكثر من موضع، بل دعا المسلم إلى الاعتبار بهذه الآيات القرآنية وأن يُحاكي بها واقعه وفترته التي يعيش فيها ؛ لأنَّ القرآن الكريم عبارة عن أُصولٍ وقضايا كليةٍ يندرج فيها ما يشابهها ويقاس عليها.

فلا يظن المسلم إذا مَرَّت به آيةٌ مــن كتاب الله تعالى أنها لا تعنيه بالدرجة الأولى أو ليس لها علاقة بواقعه، بل هي خطابٌ له ولقومه ولمن بعده من الأمم المستقبلية، ولهذا قال الإمام ابن القيّم (ت: ٧٥١هـــ) رحمه الله تعالى: " ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله ! إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرٌ منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأُولئك " (١).

وعلى هذا فإنَّ قضية تنــزيل الآيات على الواقع تعتبر من قبيل القول بالرأي الذي طريقه القياس والتمثيل، فإن كان الرأي مذموماً رُدَّ وعُدَّ من التنــزيل المذموم، وإن كان غير ذلك فإنه يُقبل بالضوابط التالية:

١- **سلامة المقصد في تنــزيل الآية**، والتجرد من المذهبية العصبية والأهواء السياسية وما شاكلها مما لا يهدف إليه القرآن العظيم.

فإذا استغل المُفَسِّر هذا التنــزيل في تحقيق مآربه وأغراضه المذهبية والشخصية، اعتبر مــن قبيل التخبيط واللَّعِب في كلام الله تعالى، وعُدَّ من القول المذموم، بل عَدَّه

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٤٣).



الشيخ عبدالله بن الصديق الغماري (١) رحمه الله من بدع التفاسير فقال: "... فحمل آيـــات القرآن على عقيدةٍ معينةٍ، أو مذهبٍ معين، هـــو - ولا شك - من بدع التفاسير " (٢).

وقال الشيخ شلتوت (ت: ١٣٨٣هـــ) رحمه الله في بعض المُفَسِّرين الذين نَزَّلوا الآيات القرآنية على ما يوافق مذهبهم وعقيدهم: "... ومنهم من عني بتنـــزيل القرآن على مذهبه أو عقيدته الخاصة، وبذلك وجُدِت تحكمات الفقهاء والمتكلمين وغلاة المتصوفة وغيرهم ممن يُروِّجون لمذاهبهم، ويستبيحون في سبيل تأييدها والدعاية لها أن يقتحموا حِمى القرآن.

فأصبحنا نرى من يؤول الآيات لتوافق مذهب فلان، ومن يخرجها عن بيانها الواضح وعرضها المسوقة له، لكيلا تصلح لمذهب فلان، وبهذا أصبح القرآن تابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومحكوماً عليه بعد أن كان حاكماً ! " (٣).

ومـــن أمثلـــة هؤلاء ما فعله العلاّمة الزمخشري (ت: ٥٣٨هـــ) رحمه الله - على سعة علمـــه — مـــن تنـــزيل آيـــة في اليهود والنصارى على أهل السنة والجماعة من دون مشابهة أو مماثلة ؛ وذلـــك نظراً لِتَعَصُّبِهِ الاعتزالي ضد أهل السنة والجماعة في عصره.

ففي قـــول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (آل عمران:١٠٥) قال في المراد بالذين تفرقوا

(١) هو: عبد الله بن محمد الصديق الغماري، من كبار علماء المغرب، توفي سنة (١٤١٣هـــ)، وله العديد من المؤلفات منها: (فضائل القرآن)، و (جواهر البيان في تناسب سور القرآن). وقد ترجم لنفسه في نهاية كتابه بدع التفاسير ص (١٦ - ١٨٧). ويُنظر أيضاً: تكملة مُعجم المؤلفين ص (٣٤٩ - ٣٥٣).

(٢) بدع التفاسير ص (١٤٥).

(٣) تفسير القرآن الكريم ص (٩).



واختلفوا: "..هم اليهود والنصارى... وقيل هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبهة(١) والمجبرة(٢) والحشوية (٣) وأشباههم " (٤).

فيُلاحظ في بداية كلامه أنه ذكر المعنيين بهذه الآية وهم اليهود والنصارى، وهذا صحيح لقول جمهور المفسرين من الصحابة ومن بعدهم (٥).

ثُمَّ نَقَلَ قولاً آخر: وهو أنَّ المعنيين بهذه الآية هم مبتدعة هذه الأمة.

وهذا تنـــزيل صحيح لعمل أبي أُمامة رضي الله عنه حيث نَزَّلها على بعض هؤلاء المبتدعة وهم الحرورية (٦).

ولكنَّ المشكلة عند الزمخشري تكمن بجعله الحشوية - وهم بزعمه أهل السنة والجماعة - من ضمن المبتدعة الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وهذا

---

(١) **المُشَبِّهة**: هم الذين شبهوا الخالق بخلقه فقالوا: له يدٌ كيد المخلوق ونحو ذلك - تعالى الله عما يقولون - وأول ظهور للتشبيه كان على يد الرافضة، وكان المبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم يُطلقون على مثبتي الصفات من أهل السنة: مشبهة.
يُنظر: الملل والنحل (١/١٠٣).

(٢) **المُجَبِرة**: اسم يُطلق على الغلاة في إثبات القدر، حتى جعلوا العبد مجبوراً على فعل نفسه، وليس له اختيار البتة، بل هو كالريشة في مهب الريح، وكحركة الآلة في يد من يُحركها.
يُنظر: الملل والنحل (١/٨٥)، والفرق بين الفرق ص (٢٠٨ - ٢١٢).

(٣) **الحَشَوية**: وصف أطلقه أهل الكلام على أهل السُنة والجماعة، وذلك نسبةً إلى العامة الذين هم حَشو الناس، أو نسبة إلى حَشو القول، الذي هو فضل الكلام.
ولفظة (الحَشوية) لفظة مبتدعة أول من تكلم بها عمرو بن عبيد حيث قال: " كان عبد الله بن عمر حَشوياً ".
يُنظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/٢٣، ١٤٤، ١٤٨)، (١٢/١٧٦).

(٤) تفسير الكشاف (١/٣٩١).

(٥) يُنظر: تفسير الطبري (٥/٦٦٣)، وتفسير البغوي (١/٣٣٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (١/٣١٢)، وفتح القدير للشوكاني (١/٤٧٠).

(٦) زاد المسير (١/٣١٢).



من التنـــزيل المذموم.

والسبب في هذا التنـــزيل الذي أجراه الزمخشري هو ما كان يُعانيه في عصره من سوء العلاقات بينه وبين أهل السنة والجماعة، مما جعله ينصِبُ لهم العداء، ويُعلن الحقد والبغضاء في تفسيره حتى جعلهم بمنـــزلة اليهود والنصارى.

وقـــال أيضاً عند قوله تعـــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (التوبة: ٧٣) " ﴿ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ بالسيف، ﴿ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ بالحُجة، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ في الجهادين جميعاً ولا تُحابهم، وكل من وقف منه على فسادٍ في العقيدة فهذا الحُكم ثابت فيه، يُجَاهَد بالحُجة، وتُستعمل معه الغِلّظة ما أمكن منها ! (١).

ولا يُستبعد أن يكون مراده من خلال هذا التنـــزيل الذي ساقه بطريق الإشارة والتلميح هم أهل السُنة والجماعة ؛ لِمَا عُرف عنه من العداوة والمناوأة تجاههم.

وقـــد انتبه الدكتور: محمد حسين الذهبي (ت: ١٣٩٧هـــ) رحمه الله لهذا التنـــزيل المذموم فقال: "... ويرمي من ورائه إلى أنَّ الآية شاملة لخصومه من أهل السنة.. "(٢).

ومن الأمثلة أيضاً ما يتخذه كثيرٌ من الناس في مواقع مختلفةٍ عن طريق هذا التنـــزيل من الوصول إلى مآرب شخصيةٍ وحاجاتٍ في نفسه طاوياً حقيقة الآيات عن أعين العامة باستشهاداته وتنـــزيلاته، وذلك باتخاذ قدرته الشخصية في هذا المجال أو بتسخير قدرات غيره تحقيقاً لِمَا يرغب ويريد (٣).

(١) تفسير الكشاف (٢/٢٨١).

(٢) التفسير والمفسرون (١/٣٠٥).

(٣) يُنظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، للدكتور صلاح الخالدي ص (١٧٨ - ١٨٠).



٢- **العلم وقوة تأصيله الشرعي**، فقد يجد الإنسان من ينـــزلُ بعض الآيات على واقعه في غير موضعها جهلاً منه، أو ضعفاً في تكوينه الشرعي.

وهذا من التنـــزيل المذموم الغالب على بقية الأسباب كما قال بذلك الشيخ الغماري رحمه الله: " وأغلب البدع الموجودة في تفاسير المعاصرين، منشؤها الجهل بأصول علم التفسير وقواعده، أو الحرص على الظهور بمظهر المستنير الرأي النابذ للتقليد ومن هنا كانوا خاطئين " (١).

ومن الأمثلة على هذا ما كان يفعله الخوارج من التخبيط في تنـــزيل الآيات في غير موضعها على سبيل الجهل وسوء الفهم.

ولذلك فإنَّ ابن عمر رضي الله عنه كان يراهم شِرارَ خلق الله ويقول: " إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين (٢) " (٣).

قال الإمام الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) رحمه الله معلقاً على هذا النص: " فهذا معنى الـــرأي الذي نَبَّه ابن عباس (٤) عليه، وهو الناشئُ عن الجهل بالمعنى الذي نَزَل فيه القرآن " (٥).

---

(١) بدع التفاسير ص (٨).

(٢) **تنبيه**: سبق الكلام إلى أنه لا مانع من تنـــزيل الآيات التي نَزَلت في حق الكفار على المؤمنين ممن انطبقت عليهم بعض الصفات التي حملها الكفار.
يُنظر: المبحث الرابع من الفصل الأول ص (٤٣).
إلاَّ أنَّ الفرق بين هذا التنـــزيل وبين تنـــزيل الخوارج، هو أنَّ الخوارج قد بنوا على هذا التنـــزيل حُكماً، ثُم بنوا على ذلك الحُكم عملاً وهو قتال المسلمين بدعوى كفرهم وخروجهم عن الملة.

(٣) أخرجه البخاري معلقاً في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والمُلحدين بعد إقامة الحُجة (فتح ١٢/٢٩٥)، وقد وصله الطبري في (تهذيب الآثار) من مُسند علي رضي الله عنه - كما في الفتح (١٢/٢٩٨) - من طريق بُكير بن عبد الله بن الأشج أنه سأل نافعاً: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: كان يراهم شِرار خلق الله... الأثر، وقال ابن حجر: "وسنده صحيح".

(٤) يُنظر: تنبيه ابن عباس في الموافقات (٤/١٤٨).

(٥) الموافقات (٤/١٤٩).



٣- **العلم بأسباب النـــزول**؛ لأنَّه معينٌ على فهم الآية ومن ثَمَّ القدرة على التنـــزيل الصحيح، ولهذا بيّن الإمام الواحدي (ت: ٤٦٨هـــ) رحمه الله: "امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"[(١)] فإذا عَرَف المنـــزل سبب النـــزول أمكن له مقارنته بالحدث المُعاصر له.

٤- **ما كان سياقه في واقع الآخرة فلا يجوز تنـــزيله على واقع الدنيا**؛ لأنَّ لكلٍ منهما خصائص وفوارق تختلف عن الأُخرى، وقد أغرَبَ الشيخ أحمد الغماري[(٢)] حينما قال في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ ﴾ (التكوير: ٥) جُمِعَتْ في حدائق الحيوانات وسجنها في الأقفاص[(٣)]، ونَزَّل النـــزول على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ ﴾ (التكوير: ٥) حيث قال: " وغير خافٍ أنَّ البترول بِحارٌ مُودعَةٌ في الأرض... وهي بِحارٌ من الزيوت أودَعَها الله في بَطْن الأرض منذ خَلَقَ الله الدنيا.. " [(٤)].

ومـــن المعلوم أنَّ سياق هذه السورة جاء في أُمور الآخرة وأحوالها [(٥)]، ولذلك

---

(١) أسباب النـــزول ص (٤٣) بتصرفٍ يسيرٍ جداً.

(٢) **هو**: أحمد بن محمد بن الصّديق الغماري، من كبار علماء المغرب، توفي سنة (١٣٨٠هـــ)، له العديد من المؤلفات منها: (الهداية بتخريج أحاديث البداية)، و (المُداوي لِعِلل الجامع وشرحي المُناوي). تُنظر ترجمته في مطلع كتابه: حصول التفريج بأصول التخريج ص (٦ - ٨).

(٣) يُنظر: مطابقة الاختراعات العصرية ص (٢٣).

(٤) المصدر السابق ص (٢٤).

(٥) وإن قال أُبي بن كعب رضي الله عنه في الآيات الأُولى من سور التكوير بأنها تكون قبل يوم القيامة فذلك يعني قُبيل قيام الساعة بزمنٍ يسير تعقِبه الساعة مُباشرةً، وهذا واضحٌ من خلال كلامه حينما قال: " سِتٌ آياتٍ قبل يوم القيامة، بينا الناسُ في أسواقهم، إذ ذهب ضَوْءُ الشمس، فبينَما هُم كذلك إذ تناثرت النجومُ، فبينما هم كذلك إذ وقَعتِ الجبالُ على وجه الأرض، فتحرَّكت واضطرَبت واحترَقت، وفزِعتِ الجنُّ إلى الإنسِ، والإنسُ إلى الجنِّ، واختلطت الدوابُّ والطير والوحشُ، وماجوا بعضهم في بعض... ".
يُنظر: تفسير الطبري (١٢٨/٢٤)، وابن أبي حاتم (٣٤٠٢/١٠ - ٣٤٠٣).



قـــال النبي ﷺ: "مَـــنْ سَرَّه أن ينظـــر إلى يوم القيامة كأنه رَأْيُ عَيْن فليقرأ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ ﴾ (التكوير: ١) و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ ﴾ (الانفطار: ١) و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ ﴾ (الانشقاق: ١) " (١).

فإن عَدَّ هذا العمل تنـــزيلاً فقد أخطأ ؛ لأنَّ أمور الآخرة لا تنـــزل على أمور الدنيا، وإن عَدَّه تفسيراً فتلك مصيبةٌ أعظم ؛ لأنه قد خالف أصول التفسير وقواعده والتي مِن أبرزها مُرَاعاة السِّياق.

٥- **مراعاة أحوال الفترة التي نَزَلَ فيها النص القرآني** ؛ حتى لا يستخدم المرء بعض الآيات التي نَزَلَت في فترةٍ مُعينةٍ لا يُناسب تنـــزيلها على فترته التي هو فيها، مما يؤدي إلى وقوعه في حرجٍ شديد، فمرحلة المكي تختلف عن المدني، وحالة السِّلم تختلف عن الحرب وهكذا.

ولذلك فإنَّ " الحركة والواقع الذي تواجهه الأمة المسلمة في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تُحدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب؟؟ للأخذ به في ظرف من الظروف، في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يُصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تُمَكِّنها من تنفيذ هذه الأحكام " (٢).

ومثال ذلك ما كان في آيات الجهاد التي مَرَّت بمراحل عِدةٍ في عهد النبي ﷺ كمرحلة الضمور والضعف التي كانت في العهد المكي، ومرحلة الصُلح والسِلم، ومرحلة الشِّدة والقوة وهكذا، فإذا نَزَّل المرء الآيات التي تتحدث عن مرحلة الضعف على واقعه

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة إذا الشمس كورت (٥/٤٠٣) حديث رقم (٣٣٣٣)، وأحمد في مسنده (٨/٤٢٤) حديث رقم (٤٨٠٦) عن ابن عمر، وقال الترمذي (٥/٤٠٤): حسن غريب، وصححه الحاكم في المستدرك (١/١٧٢) ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في الفتح (٨/٥٦٤): حديث جيد.

(٢) الظلال (٣/١٥٨٠) بتصرفٍ يسير.



الذي هو زمن القوة أو العكس، عُدَّ هذا من قبيل التنـــزيل المذموم الذي خَبَّط فيه صاحبه، وهذا ما يُرى عند " المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين - الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان - وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصل الجهاد في الإسلام، يُحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهرباً من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد، وردهم جميعاً إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير الله والخضوع لسلطان غير سلطانه، والتحاكم إلى شرع غير شرعه، ومن ثَمَّ يقولون مثلاً: إن الله سبحانه يقول: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٦١)، ويقول: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة: ٨) ... إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعاً معيناً، وهذا الواقع المُعَين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تُطَّبق هذه النصوص المرحلية لأنَّ واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام، ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المُنى، وأنَّ هذه هي نهاية خطوات هذا الدين، إنما معناه أنَّ على الأمة المسلمة أنْ تمضي قُدماً في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها، حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة والتي كانت تواجه واقعاً غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية " (١).

٦- **أنْ يكون المُفَسِّر متبصراً بالواقع المعاصر**، عالماً بأحوال الناس، وألاَّ يكون مُجَرد حافظٍ للنصوص، ومتفنن في نقلها دون أن يعتني بتنـــزيلها وربطها على واقعه ؛ لأنَّ مَنْ لم يفهم الواقع ولم يُدرك الوقائع وإن فهم الآية فقد يعجز عن التنـــزيل.

(١) الظلال (٣/١٥٨١).



ولهذا فقد عَدَّ الشيخ محمد عبده رحمه الله العلم بأحوال البشر وواقعهم من شروط تفسير القرآن الكريم (١)، ومن الضروريات المهمة لإدراك حقائق الزمان (٢).

وهذا لا يعني إخضاع الآيات تحت ضغط الواقع، أو ليّ أعناقها حتى تتناسب مع الواقع المعاصر، كما يفعل البعض من جعلهم الواقع هو المحور الثابت وما سواه من نصوص أو قواعد شرعية متغيرة فيتم تحريفها على الوجه المطلوب، كما فعل ذلك مصطفى محمود حينما تَكَلّم عن قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النور: ٣٠) فقال: "لو أخذنا الآية بظاهر حروفها، دون أن يكون جوهر القضيّة واضحاً في الذهن، فسوف نجد أنَّ الحياة الطبيعية في زمننا - زمن الميني جوب، والديكولتيه، والجابونيز (٣)، والصدر العريان، والشعر المرسل، والباروكات الذهب أمرٌ صعب، والسير في شارع مثل عماد الدين، أو فؤاد، أو سليمان باشا، سيراً مطابقاً لحروف الآية هو الأمر العسير.. ونحن نرى

(١) يُنظر: تفسير المنار (١/٢٥).

(٢) وقد جرى حوار بين جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده أثناء لقائهما في الآستانه حول أهمية معرفة الواقع عند العلماء... ومنه قول الأفغاني: لاشك أنَّ أغلب المُشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة بأحوال الناس، ويفوقهم العلم بما عليه أهل العصر، ولو خَبَروا الزمان وأهله لأمكنهم أن يحموا شرعهم، ويُعلوا شأن أهل ملتهم، مع أنَّ العالم لا يكون عالماً حتى يكون مع علمه عارفاً، والعارف هو الذي يُمكنه أن يُوثق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في زمانٍ بحسبه، ومن كان بارعاً في العلوم الدينية ولكن لا يعرف حال أهل عصره، ولا يُراقب أحكام زمانه، فلا يُسمى عالماً، ولكنه يُسمى (متفنناً) أعني أنه يعرف فن النحو أو فن الفقه أو ما أشبه ذلك، ولا يُسمى عالماً على الحقيقة حتى يظهر أثر علمه في قومه، ولا يظهر ذلك الأثر إلاّ بعد علمه بأحوالهم وإدراكه لحاجاتهم.
وأيَّده تلميذه بقوله: ما تقوله سماحتكم هو المعروف عند الأولين من علمائنا، وقد جاء في كثيرٍ من كتب السادة المالكية تعريف العالم بأنه: " العاكف على شأنه، البصير بأهل زمانه "...
ينظر: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، جمع الدكتور محمد عمارة (١/٨٨١ - ٨٨٣).

(٣) أسماء لبعض الملابس الغربية التي غزت بلاد المسلمين.



وجهاً فنهتف بالقلب إعجاباً (الله) ونقصد الخالق الذي صَوَّر وليس المخلوق، فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط.. وإنما تكتب لنا حسنةً.. وهي نظرةٌ لا يقدِر عليها إلا متصوفٌ عابد.. وغض البصر ليس فقط غَضُّ البصر عمَّا يعتري من الجسد، وإنما هو غَضُّ البصر، عمَّا في يد الناس من مالٍ ونعمةٍ، وهو الحياء والترفع عن النـــزول بالنفس إلى مواطن الشهوة والحسد، والحقد والغيرة" (١).

فإذا كان الواقع مليئاً بالاضطرابات العظيمة، والتصرفات السقيمة فهذا لا يعني أن يُطَوَّع النص القرآني من أجله، بحجة المسايرة والمواكبة لهذا الواقع المُتَردي.

٧- **أن يكون التنـــزيل مندرجاً تحت أصل الآية**، وفهم تفسيرها على المعنى الصحيح فلا يجنح إلى تفسير الآية تفسيراً معاصراً مستقلاً بذاته دون الرجوع إلى معنى الآية الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعون، ويَدَّعي أنَّ ما حَدَثَ في الواقع المعاصر هو الذي ينبغي أن تنـــزل عليه الآية دون غيره، وهذا من التنـــزيل المذموم.

ومن هؤلاء ما اعتمده سيد أحمد خان في شأن تفسير القرآن وذلك بأن يكون وفق مقتضيات العصر دون الالتفات إلى تفاسير السابقين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فيقول: " في ضوء الظروف الجديدة، وتوسع المعرفة الإنسانية، لا يمكن الاعتماد في فهم القرآن على التفاسير القديمة، التي اشتملت على كثيرٍ من الخرافات، ولكن ينبغي فهم النص القرآني من خلال معرفتنا وتجاربنا الذاتية... " (٢).

وأيَّد هذا الرأي أيضاً صِنوه الطبيب الشاعر أحمد زكي أبو شادي فقال: " من الحقائق التي يجب التسليم بها أنَّ القرآن الشريف يجب أن يُعاد النظر في فهم تعاليمه

---

(١) يُنظر في الرد على هذا التحريف: (القرآن وقضايا الإنسان) للدكتوره عائشة عبد الرحمن ص (٣٢٣)، و (شطحات مصطفى محمود في تفسيراته المعاصرة) للأستاذ عبد المتعال الجبري ص (٢٣١).

(٢) مفهوم تجديد الدين، لبسطامي محمد سعيد ص (١٢٣).



وتطبيقها من عصرٍ إلى عصر، بل من جيل إلى جيل، وعلى هذا لا بد من ظهور تفاسيرٍ جديدةٍ متمشيةٍ مع روح العصر وتقدم العلم، يؤلفها المُطَلِعون الواعون من الأحرار المُفكرين " (١).

ومعلومٌ أنه لا سبيل إلى الدخول في أقطار القرآن وتفسيره إلاَّ من خلال أمرين أساسيين وهما الآتي:

الأول: فَهْمُ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن، " فهم عسكر القرآن، وجند الرحمن، وألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحةً، وأقربها إلى الله وسيلة.. " (٢) وهم أولى الناس بالهداية إلى سبيل الله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وإذا تمَّ الأخذ بكلام أبو شادي وأمثاله فإننا سوف نُلغي فهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم للقرآن الكريم ؛ لأنهم نشأوا في عصرٍ غير عصرنا وجيلٍ غير جيلنا !!.

فكل دعوى تقوم على قطع الصلة بالصحابة الكرام رضي الله عنهم فهي دعوى مرفوضةٌ ليست نزيهة.. وربما جاء من يقول: نحن لسنا بحاجةٍ إلى السُنَّة في فهم القرآن!! وقد قيل.

الثاني: معرفة لسان العرب، فمن لا علم له بلسان العرب فليس له سبيل إلى كتاب الله تعالى تفسيراً واستنباطاً.

ولذلك قال الشاطبي (ت: ٧٩٠هـــ): " لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نَزَلَ القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عُرْفٌ مستمِرٌّ فلا يصح العدولُ عنه في فهم الشريعة.. " (٣).

"ويُفهم من ذلك أنَّ معرفةَ اللُّغةِ العربية شرطٌ في فهم القرآن ؛ لأنَّ من أراد

(١) ثورة الإسلام ص (٣٥).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية (١/١١).

(٣) الموافقات (٢/١٣١).



تفسيره، وهو لا يَعرفُ اللُّغةَ التي نَزَلَ بها القرآن، فإنه لا شَكَّ سيقع في الزَّلَلِ، بل سيحرِّف الكَلِمَ عن مواضِعِهِ" (١).

وهذا ما حَصَل من قِبَل بعض المُعاصرين الذين اتخذوا تنـــزيلاً مُستقلاً بذاته عن فهم الصحابة رضي الله عنهم ولسان العرب فحرفوا وخَبَّطوا، ومن ذلك:

ما قاله الدكتور محمد شحرور عند قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١) من أنَّ المواضع التي يحرُم إظهارها بالنسبة للمرأة خمسة وهي: ما بين الثديين، وتحت الثديين، وتحت الإبطين، والفرج، والإليتان.

وما سوى ذلك من جسدها فجائز أن تُظهره لقوله: "... فالزينة الظاهرة هي ما ظهر من جسد المرأة بالخَلق أي ما أظهره الله - في خلقها، كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين، ونحن نعلم أنَّ الله خلق الرجل والمرأة عراة دون ملابس، وقسم غير ظاهر بالخَلق: أي أخفاه الله في بِنْيَة المرأة وتصميمها، هذا القسم هو الجيوب... فالجيوب في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق، وهي ما بين الثديين وتحت الثديين، وتحت الإبطين والفرج والإليتين (٢) هذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيهـــا لذا قال ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١) " (٣) !!.

والذي يظهر - والله أعلم - أنَّ هذا النصَّ ناتج عن انبهاره بحياة الكفار وسلوكهم الذي كان يضج بالتفسخ والعُري، فقد عاش بين ظهرانيهم فترةً ليست بالقصيرة كإقامته في الاتحاد السوفييتي، مما جعله يبحث عن مَخْرجٍ لِمَا يراه في واقع تلك البلاد من خلال النظر في كلام الله تعالى، وتنـــزيله على واقعه، فجنح إلى هذا التفسير الخاطئ الذي لم يقل به أحد من أهل العلم، والمخالفِ لضوابط التفسير والتي منها أصول اللغة.

(١) التفسير اللغوي، للدكتور مساعد الطيَّار ص (٤١).

(٢) الصواب: الإليتان.

(٣) الكتاب والقرآن ص (٦٠٦ - ٦٠٧).



الفصل الثالث

نماذج من تنـزيل الآيات على الواقع عند المُفسِّرين القدامى

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تنـــزيل الآيات على الواقع عند ابن العربي في (أحكـــام القرآن).

المبحث الثاني: تنـــزيل الآيات على الواقـــع عنـــد القـــرطبي في (الجـــامع لأحكام القرآن).

المبحث الثالث: تنـــزيل الآيات على الواقع عند ابـــن تيميـــة في تفـــسيره لبعض (سورة الأحزاب).



المبحث الأول

تنزيل الآيات على الواقع عند ابن العربي في (أحكام القرآن)

اتضح لي بعد البحث والتنقيب أنَّ أبا بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـــ) رحمه الله يُعتبر من أوائل من استخدم قضية التنـــزيل في كتب التفسير.

وقد سبقت الإشارة (١) إلى أنَّ هذا من خلال كتابه (أحكام القرآن) الذي اقتصر فيه على تفسير آيات الأحكام، فكيف لو تَمَّ العثور على تفسيره الكبير المسمى بـــ (أنوار الفجر) لكان الوقوف على كثيرٍ من التنـــزيلات على واقعه، وذلك نظراً لمروره على آيات القرآن كاملة.

ولعل مسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) من أقوى الأدلة التي تُبين تأييد ابن العربي لمسألة التنـــزيل، حيث قال رحمه الله: " قد آنَ أن نكشف لكم نكتةً أُصولية وقعت تفاريق في أقوال العلماء تلقَّفتها جملةً من فك شديد ؛ وذلك أنَّا نقول: مهما قلنا: إنَّ اللفظ الوارد على سبب، هل يقصر عليه أم لا ؟ فإنَّا لا نُخرج السببَ عنه، بل نُقره فيه، ونعطفُ به عليه، ولا نمتنع أن يُضاف غيرُه إليه إذا احتمله اللفظ، أو قام عليه الدليل.. " (٢).

وبيّن أيضاً أنَّ بعض خطابات القرآن الكريم التي تكون للنبي ﷺ إنما هي له ويشترك معه جميع أفراد الأمة معنى وفعلاً، ثُمَّ ذكر بعض الأمثلة كقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ (الإسراء: ٧٨) وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (النحل: ٩٨)، وكقوله: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (النساء: ١٠٢)،

(١) يُنظر المبحث الثالث من الفصل الثاني ص (٦٣).

(٢) أحكام القرآن (٢/٢٠٢).



ثُمَّ قال رحمه الله: " فكلٌّ من دلَكَتْ عليه الشمس مخاطبٌ بالصلاة، وكذلك كلٌّ من قرأ القرآن مخاطبٌ بالاستعاذة، وكذلك كلٌّ من خاف يقيمُ الصلاة بتلك الصفة " (١).

وسوف أسوق في هذا المبحث شيئاً من الموضوعات التي تناول فيها ابن العربي واقعه، فنـــزل الآيات عليه...

أولاً: الحث على الجهاد:

وهي من الموضوعات المهمة التي كان ابن العربي يُناهض من أجلها، ويدعو الناس إليها حرصاً منه على إعلاء راية الدين، وقمع الكفر والكافرين.

ولَمَّا كانت الآية الكريمة ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (التوبة: ٤١) تدعو إلى الجهاد وتحث عليه، ناسب أن ينـــزلها على ما كان في واقعه عندما دَخَلَ العدو بلاده الأندلس سنة (٥٢٧هـــ)، فاستنفر رحمه الله الحاكم والمحكوم، والوالي والمولى حتى يُدافعوا عن دينهم ويحموا ديارهم وأعراضهم، إلاَّ أنه لم يجد للكلام مسمعاً، ولا للقول عملاً فقال: " ولقد نَزَلَ بنا العدو - قَصَمَه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسَّط بلادَنا في عددٍ هال الناس عددُه، وكان كثيراً، وإن لم يبلغ ما حدَّدوه، فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدوّ الله، وقد حصلَ في الشَّرك والشَّبكة، فلتكن عندكم بَرَكَة، ولتظهر منكم إلى نُصْرة دينِ الله المتعيّنة عليكم حَرَكَة، فليخرج إليه جميعُ الناس حتى لا يبقى منهم أَحَدُ في جميع هذه الأقطار فيُحَاط به ؛ فإنه هالك لا محالة إنْ يَسَّركم الله له.

فغلبت الذنوب، ووجفت القلوبُ بالمعاصي، وصار كلُ أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وَجاره، وإنْ رأى المكروه بِجَاره، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وحسبُنا الله ونعم الوكيل" (٢).

(١) أحكام القرآن (٢/٤٧٣ - ٤٧٤).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٢٢).



وقد ساق أيضاً عند الآية السابقة قصةً لأحد الأمراء مفادها أنه تعاهد مع قومٍ من الكفار ألاّ يحبسوا أسيراً، فَدَخَلَ رجلٌ من جهته بلادهم، فمرَّ على بيت مُغلق، فنادته امرأةٌ: إني أسيرةٌ فأبلغ صاحبك خبري.

فلَمَّا اجتمع الرجل مع الأمير أخبره بشأن الأسيرة، فما كان من الأمير إلاّ أن قطع مجلسه وقام على قدمه، وخرج غازياً من فَوْره، ومشى إلى البلد حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع.

فعَلَّق ابن العربي رحمه الله على هذه الحادثة بقوله: " فكيف بنا وعندنا عَهْدُ الله ألاَّ نُسَلِّم إخواننا إلى الأعداء، وننعم وهم في الشقاء، أو نملك بالحرية وهم أرِّقاء. يالله ولهذا الخطب الجسيم نسأل الله التوفيق للجمهور والمنة بصلاح الآمر والمأمور " (١).

وهذه القصة تَجُرنا إلى كلامه رحمه الله حول مسألة الأسير وحالته في عصرهم وذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٥) حيث بَيَّن أنَّ هذه الآية الكريمة تحدثت عن المؤمنين والمؤمنات الذين كتموا إيمانهم في مكة، فتسببوا في عدم دخول المؤمنين عليهم عنْوَةً لئلا يقتلوهم أو يُصيبوهم بغير علم ظناً بأنهم من أهل الكفر.

وبَيَّن أنَّ هذه الآية يدخل فيها الأسير المُسلم إذا كان رهيناً عند الكافرين، فلا يجوز رميهم أو ضربهم بالعموم، ثُمَّ ذكر واقعةً حَصَلَت له ولقومه نَزَّل الآية الكريمة عليها فقال: " وقد حاصرنا مدينة للروم، فحبس عنهم الماء، فكانوا ينـــزلون الأسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدر أحدٌ على رميهم بالنبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا " (٢).

---

(١) أحكام القرآن (٢/٤٢٣).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٣).



ثانياً: تطبيق الأحكام الشرعية:

تولى ابن العربي القضاء فترةً من الزمن، وكان يحكم فيه بشرع الله تعالى، ولذلك كان يبدأ كلامه وآراءَه في مصنفاته بقوله: قال القاضي، وظهر هذا جلياً في (أحكام القرآن) عندما تحدَّث عن هذه الفترة التي مَرَّ بها وكيف نَزَّلَ الآيات على بعض قضاياها.

ومن ذلك معالجته لبعض القضايا التي حَصَلَت في واقعه من الجرائم والإفساد في الأرض من خلال تنـــزيلها على كلام الله تعالى.

فعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (المائدة: ٣٣).

قال رحمه الله: " ولقد كنت أيام تولية القضاء قد رُفِعَ إليَّ قومٌ خرجوا محاربين إلى رفقة فأخذوا منهم امرأةً مغالبةً على نفسها من زوجها ومن جملة المسلمين معه فيها فاحتملوها ثم جَدَّ فيهم الطلب فأُخِذُوا وَجيء بهم، فسألت من كان ابتلاني الله به من المُفتين، فقالوا: ليسوا محاربين لأنَّ الحرابة إنما تكون في الأموال لا في الفروج.

فقلت لهم: إنا لله وإنا إليه راجعون ألم تعلموا أنَّ الحرابة في الفروج أفحَشُ منها في الأموال، وأنَّ الناسَ كلهم ليرضون أنْ تذهبَ أموالهم وتُحرَب من بين أيديهم ولا يُحرَبُ المرءُ من زوجته وبنته، ولو كان فوق ما قال الله عقوبة لكانت لمن يَسلب الفروج. وحسبكم من بلاء صحبة الجهال وخصوصاً في الفتيا والقضاء " (١).

وذكر أيضاً في مَعرِض حديثه عن آية الحرابة ما يدخل فيها كالسارق إذا هَمَّ بالقتل مع السرقة فقال رحمه الله: " وكنتُ في أيام حكمي بين الناس إذا جاءني أحَدٌ بسارق وقد دخل الدارَ بسكينٍ يسحبه على قَلْب صاحب الدار وهو نائم، وأصحابُه يأخذون مالَ الرجل حكمتُ فيهِم بحكم المُحَارِبين، فافهموا هذا من أصل الدين وارتفعوا إلى يَفَاع

(١) أحكام القرآن (٢/٧٠ - ٧١).



العلم عن حَضِيض الجاهلين " (١).

ومن الأحكام أيضاً ما كان في مسألة بَعْث الحَكَمَين بين الزوجين المتخاصمين، وذلك بأنها قضيةٌ قد نَدَرَ العمل بها من قِبَل قضاة ذلك الزمان، إلى أن تولى هو القضاء فأحيا هذا الأمر الإلهي ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (النساء: ٣٥).

فقال رحمه الله: " وهي من الآيات الأصول في الشريعة و لم نجد لها في بلادنا أثراً بل ليتهم يرسلون إلى الأمينة فلا بكتاب الله تعالى ائتمروا، ولا بالأقيسةِ اجتزَوْا، وقد نَدبْت إلى ذلك فما أجابني إلى بَعْثِ الحكمين عند الشقاق إلا قاضٍ واحد، ولا إلى القضاء باليمين مع الشاهد إلا قاضٍ آخر، فلمَّا ولاَّني الله الأمر أجريتُ السنة كما ينبغي، وأرسلت الحكمين، وقمْتُ في مسائل الشريعة كما علَّمني الله سبحانه من الحكمة والأدب لأهل بلدنا لما غمرهم من الجهالة " (٢).

ثالثاً: شكواه من بعض القضايا في زمانه:

هناك بعض القضايا المتناثرة التي ذكرها ابن العربي رحمه الله والتي يُظهِر فيها الشكوى من بعض الناس في زمانه ومنها الآتي:

١- حديثه عن ترك البلاد التي يكثر فيها البدع والمنكرات، فعندما ذكر أقسام السفر عند قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٠١) وَذَكَرَ منها القسم الثاني وهو الخروج من أرض البدعة إذا لم يقدر المرء على تغييرها، ساق قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ

(١) أحكام القرآن (٢/٧٤).

(٢) المصدر السابق (١/٤٦٦).



ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٦٨) فنـــزلَ الآية على ما كان يراه من تصرفات أهل مصر عندما حَلَّ فيها، وما شاهده من البدع والمنكرات، فقال رحمه الله: " وقد كنتُ قلت لشيخنا الإمام الزاهد أبي بكر الفهري [١] : ارْحَلْ عن أرض مصر إلى بلادِك فيقول لا أحبُّ أن أدخل بلاداً غلب عليها كثرةُ الجهل، وقلّة العقل، فأقول له: فارْتَحِلْ إلى مكة أقِمْ في جوارِ الله وجوار رسولِه، ﷺ وسلم فقد علمت أنَّ الخروجَ عن هذه الأرض فرضٌ لما فيها من البدعة والحرام، فيقول: وعلى يدي فيها هُدى كثير، وإرشادٌ للخلق، وتوحيدٌ، وصدٌّ عن العقائد السيئة، ودعاءٌ إلى الله عز وجل، وتعالى الكلامُ بيني وبينه فيها إلى حدٍّ شرحناه في (ترتيب لباب الرحلة) واستوفيناه " [٢].

٢- تحدث عن حال الخشوع المفقود في الصلاة، فعندما مَرَّ على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (المؤمنون: ٢) نَقَلَ قول الإمام مالك رحمه الله في المراد بالخشوع وهو الإقبال عليها، وكذلك قول مقاتل رحمه الله: لا يَعْرف مَن على يمينه، ولا مَن على يساره.

ثُمَّ اشتكى من حال بعض الناس في زمانه الذين يشتغلون بأحوال غيرهم وينسون أنفسهم، فقال رحمه الله: " صليْتُ المغرب ليلةً... ومعنا شيخُنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المغربي [٣] الزاهد، فلمَّا سلّمنا تمارَى رَجُلان كانا عن يمين أبي عبد الله المغربي وجعل أحَدُهما يقول للآخر: أسأْتَ صلاتَك، ونَقَرْتَ نَقْرَ الغُرَاب.

---

(١) **هو**: محمد بن الوليد الفِهْري الطرطوشي، يُكنى بأبي بكر، من كبار شيوخ ابن العربي، رحل إلى المشرق وتفقه ببغداد، وسكن الشام، وتوفي بالإسكندرية سنة (٥٢٠هـ).
يُنظر: بغية الملتمس للضبي (١/١٣٥)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٣٩٣)، ونفح الطيب للمقري (٢/٨٥ - ٩٠).

(٢) أحكام القرآن (١/٥٢٦).

(٣) لم أقف على ترجمته.



والآخر يقول له: كذبْتَ بل أحسنْتُ وأجملت.

فقال المُعْتَرِضُ لأبي عبد الله الزاهد: ألم يكن إلى جانبك فكيف رأيتَه يُصَلّي ؟.

قال أبو عبد الله: لا عِلْمَ لي به، كنت مشتغلاً بنفسي وصلاتي عن الناس وصلاتهم.

فَخَجِلَ الرجلُ وأُعجب الحاضرون بالقول.

وَصَدَقَ شيخُنا أبو عبد الله الزاهد، لو كان لصلاته قَدْرٌ، أو له بها شُغْلٌ وإقبالٌ بالكلية لَمَا عَلِمَ مَنْ عن يمينه، أو عن يساره، فضلاً عن معرفته كيفيَّة صلاته، وإلا فأحَدُ الرجلين أساء صلاته في حَذْف صفاتها، واختصارِ أركانها، وهذا أساء صلاتَه في الاشتغال بصلاة هذا، حتى ذهب حفظُ صلاته وخشوعها " (١).

٣- أثنى على نساء نابْلِس أثناء إقامته هناك عندما رأى منهن القرار في البيوت، والتزام العفاف والحِشمة عند الخروج، ما لم يره في غيرها من البلدان، وما ذاك إلاّ استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب: ٣٣) فقال رحمه الله: " ولقد دخلت نيفاً على ألف قرية من بَرِيَّةٍ، فما رأيت أصْوَنَ عيالاً، ولا أعفُ نساءً من نساء نابلس – التي رُمي فيها الخليل عليه السلام بالنار (٢) –، فإني أقمتُ فيها أشهراً، فما رأيت امرأةً في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجدُ منهن، فإذا قُضيت الصلاة، وانقلَبنَ إلى منازلهن، لم تقع عيني على واحدةٍ منهن إلى الجمعة الأخرى.

وسائر القرى تُرى نساؤها متبرجاتٍ بزينةٍ وعُطْلة، متفرقات في كل فتنة وعُضْلة، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه " (٣).

---

(١) أحكام القرآن (٣/٢٣٦).

(٢) هذا الكلام فيه نظر، والصواب أنَّ إبراهيم عليه السلام رُمي في النار عندما كان في العراق وليس في نابلس.
يُنظر: تفسير الطبري (١٦/٣١٢)، وزاد المسير (٣/٢٠١)، والبداية والنهاية (١/١٤١ – ١٤٢).

(٣) أحكام القرآن (٣/٤٥١).



ويمكن استخلاص بعض النتائج والفوائد من خلال النصوص السابقة التي نَزَّل ابن العربي بعض الآيات عليها فمن ذلك:

١- أنَّ أغلب التنـــزيل الذي استخدمه ابن العربي إنما هو من قبيل التنـــزيل الذي يُفيد المباشرة والتصريح.

٢- أنَّ أغلب التنـــزيل كان في القضايا الفقهية والتشريعية ؛ وذلك نظراً لخصوصية تناوله في هذا الكتاب الذي اقتصره على تفسير آيات الأحكام.

٣- دعوة ابن العربي رحمه الله الناس إلى الجهاد في سبيل الذود عن حِياض الدين، وصيانة أعراض المسلمين.

٤- أنَّ ابن العربي تولى القضاء فترةً من الزمن حَكَمَ فيها بشرع الله تعالى، كحُكمه على المُحاربين، وإحيائه لقضية الحَكَمَين عند شِقَاق الزوجين، ونحو ذلك.

٥- شكوى ابن العربي رحمه الله من البدع والمنكرات التي يراها في بلاد المسلمين أثناء مروره عليها، وكان يرى الخروج من أرض البدع والمنكرات إذا كَثُرت فيها، كما حَصَلَ له في أرض مصر، وكان هذا استنباطاً من الآية الكريمة السابقة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٦٨) إلاّ أنَّ شيخه لم يُحبذ ذلك وأمره بالجلوس بقصد الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر.

٦- إعجاب ابن العربي رحمه الله بنساء نابلس عن غيرها من البلدان لِمَا يرى فيهن من التستر والحِشمة، والعفاف والقرار.

٧- كثرة رحلات ابن العربي رحمه الله في طلب العلم وتطوافه بالبلدان، جَعَلَته يُدرِك واقع كثيرٍ منها، فَينـــزل الآيات عليه.



المبحث الثاني

تنـــزيل الآيات على الواقع عند القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن)

يُعَدُ تفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي (ت: ٦٧١هـ) رحمه الله من أفضل التفاسير وأميزها كتابةً حول آيات الأحكام، حيث كُتب بنَفَسِ العالم المُتجرد بنـــزاهة وموضوعيةٍ، واستقلاليةٍ في الرأي، ولذلك قال عنه الدكتور الذهبي رحمه الله: "فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حُرٌ في بحثه، نَزيه في نقده، عفٌ في مناقشته وجدله، مُلمٌ بالتفسير من جميع نواحيه، بارعٌ في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه " (١).

وكان من الأمور التي تطرق إليها في تفسيره قضية تنـــزيل الآيات على الواقع، كيف لا، وقد كان واقعه يضجُ بالقضايا والوقائع المتعددة على جميع الأصعدة في المشرق والمغرب، والتي كان من أبرزها تَمَكُّن الصليبين في الغرب والتتر في الشرق... فكان لا بد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الحوادث وتنـــزيلها عليها.

فهو من العلماء الذين يرون بأنَّ العبرة في الخطاب القرآني بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما نص على ذلك عند قوله تعـــالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف: ٣١) حيث قال: " ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ هو خطابٌ لجميع العالم وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً، فإنه عامٌ في كل مسجد للصلاة ؛ لأنَّ العبرة للعموم لا للسبب " (٢).

---

(١) التفسير والمُفسِّرون (٢/٣٢٦).

(٢) تفسير القرطبي (٧/١٦٧).



والذي يظهر أنَّ القرطبي قد تأثر واستفاد من تنـــزيلات من سبقه كابن العربي، حيث نقل عنه شيئاً منها (١).

وسوف أسوق بعض الموضوعات التي تناول فيها القرطبي رحمه الله واقعه من خلال تنـــزيل الآيات عليه (٢).

أولاً: الجهاد في سبيل الله تعالى:

وهي من الموضوعات المهمة التي رَكَّز عليها القرطبي في تفسيره ؛ لِمَا يُعانيه المسلمون في تلك الفترة من تركهم للجهاد، وتحكم العدو المحتل بهم، فناسب أن يُناقش هذه الظاهرة في تفسيره عند بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١٦) حيث نَقَلَ تفسير أبي عُبَيدة للآية وهو: " عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خيرٌ لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تُحبوا الدّعة وترك القتال وهو شرٌّ لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم " (٣).

ثُمَّ قال: " وهذا صحيح لا غُبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد ؟ وأسر وقتل وسبي واسترقّ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ! ذلك بما قدّمت أيدينا وكسبته " (٤).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩) ذَكَرَ أنَّ في قولهم هذا

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: تفسير القرطبي (٥٦/٨)، (١٣٩/٨)، (١٣٦/١٠).

(٢) يُنظر: البعد الواقعي في العمل التفسيري للدكتور زياد خليل الدغامين، مقال نُشر في مجلة التجديد الماليزية عدد – ٤ – سنة (١٤١٩هـ).

(٣) تفسير القرطبي (٤٠/٣).

(٤) المصدر السابق (٤٠/٣).



تحريضاً على القتال، واستشعاراً للصبر، واقتداءً بمن صدَّق ربه، ثُمَّ قال: "هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة، منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منّا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرّة، وذلك بما كسبت أيدينا"(١).

ثُم بيّن رحمه الله أسباب النصر التي ذكرها الله في كتابه وهي قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) وقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣) وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (النحل: ١٢٨) وقوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠) وقوله: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال: ٤٥).

ثُمَّ قال رحمه الله: " فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلَّ بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه ؛ لظهور الفساد، ولكثرة الطغيان، وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، براً وبحراً، وعمّت الفتن، وعظمت المحن، ولا عاصم إلا من - رحمهم الله تعالى – " (٢).

ومن الأدلة أيضاً على تَحَكُّم الأعداء في بلاد المسلمين ما سبق ذكره (٣) عن تلك الحادثة التي رواها القرطبي رحمه الله عن نفسه عندما جَدَّ الأعداء في طلبه فلحِقه اثنان منهم إلاّ أنَّ القدرة الإلهية قد أعمتهم عنه، وكان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٥).

---

(١) المصدر السابق (٣/٢٤٣).

(٢) تفسير القرطبي (٣/٢٤٤).

(٣) يُنظر المبحث الثاني من الفصل الثاني ص (٨٧).



ثانياً: موقفه من الصوفية والتصوف:

فعند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: ٣٤) وجه القرطبي معنى سجود الملائكة لآدم ثُمَّ بيَّن أنَّ السجود للبشر أمرٌ قد نهى عنه النبي ﷺ ، ثُم نَزَّل هذه الآية على ما كان يفعله جُهّال الصوفية من السجود للبشر فقال: " وهذا السجود المنهيُّ عنه قد اتخذه جُهّال المتصوفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقِبلة أم غيرها جهالةً منه، ضل سعيهم وخاب عملهم " (١).

وتحدث عن ذلك أيضاً عند قـــوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) حيث بَيَّن أنَّ هذا السجود قد نُسخ في الشريعة الإسلامية ثم قال: "هذا الانحناء والتكفّي الذي نُسخ عنّا قد صار عادةً بالديار المصرية وعند العَجَم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إنَّ أحدهم إذا لم يُقَم له وجد في نفسه كأنه لا يُؤبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض. عادةٌ مستمرة، ووراثةٌ مستقرة، لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نَكَبوا عن السَّنن وأعرضوا عن السُنَن"(٢).

وبيَّن أيضاً سوء فهمهم لبعض الآيات، وفساد قياسهم عندما مَرَّ على قـــوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف: ١٤) حيث نَقَلَ عن ابن عطية (ت: ٥٤٦هـــ) رحمه الله أنَّ الصوفية قد تعلقت بهذه الآية في القيام والقول، ثُّم عَلَّق على هذا النقل بقوله: وهذا تعلّق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لِمَا أولاهم من نعمه ونعمته، ثُّم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم، خائفين من قومهم، وهذه سُنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء، أين هذا

(١) تفسير القرطبي (١/٣٣٥).
(٢) المصدر السابق (٩/٢٢٥ – ٢٢٦).



من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحِسان من المرد والنسوان، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء ! (١).

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ (الأنفال: ٢) بيَّن أن هذه هي حال المؤمنين وصفاهم...، ثم استخدم تنـــزيلاً عكسياً على ما يكون في واقعه من أعمال الجهلة والمبتدعة فقال: " فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهَّال العوامِّ والمبتدعة الطَّغَام من الزّعيق والزئير ومن النُّهاق الذي يُشبه نُهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْدٌ وخشوع لم تبلغ أن تُساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله... " (٢).

وإذا كان بعض المتصوفة قد فهم أنَّ التمتع بالطيبات يُنافي الزهد، فإنَّ القرطبي رحمه الله قد هاجم بدعهم، ورَدَّ ضلالاهم.

ومن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ ﴾ (المائدة: ٨٧) حيث قال: "قال علماؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية وما شاهها والأحاديث الواردة في معناها، ردٌّ على غلاة المتزهدين، وعلى أهل البطالة من المتصوفين ؛ إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه... " (٣).

وبيّن أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (الأعراف: ٣٢) أنَّ هذه الآية تدل على لبس الرفيع من الثياب،

---

(١) المصدر السابق (١٠/٣١٨ - ٣١٩).

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣٢١).

(٣) المصدر السابق (٦/٢٤٥).



والتجمُّل بها في الجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان، ثُّم ساق أدلة ومواقف للنبي ﷺ وصحابته ثُّم قال: " أين هذا ممن يرغب عنه ويُؤثر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب، ويقول: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦) هيهات! أترى من ذكرنا - يقصد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته - تركوا لباس التقوى، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولوا المعرفة والنُّهَى، وغيرهم أهل دَعْوَى، وقلوبهم خالية من التقوى.. " (١).

وهذا كلامٌ نفيسٌ يدل على وسطية الإمام القرطبي رحمه الله، الذي يدعو إلى الجمع بين حظي الدنيا والآخرة، وإلى عدم الغلو والإتيان بما لم يأت به نبي الأمة ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

ثالثاً: موقفه من فساد الحُكَّام:

إنَّ المتأمل في تنـــزيلات القرطبي التي نَزَّلَها على ولاة عصره يَشُمُ منها رائحة الساخط الغاضب عليهم وذلك بسبب ما كانوا يمارسونه من فعل المُحَرَّمات، وترك الواجبات، وما ينتج عن ذلك من مفاسد وشرور.

فعند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأَيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٨) بيَّن أنَّ الله تعالى قد نهى المؤمنين عن الركون إلى الكفار واليهود، وأن يتخذوا منهم ومن أهل الأهواء دُخلاء وولجاء، يُفاوضونهم في الآراء، ويُسندون إليهم أمورهم، وذَكَرَ بعض الأحاديث والآثار، ثُمَ نَزَّل الآية على ما كان في واقعه من اتخاذ حُكام المسلمين الكفار بطانةً لهم فقال: " وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كَتَبَةً وأمناء، وَتَسَوَّدُوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأُمراء " (٢).

(١) تفسير القرطبي (١٧٦/٧).
(٢) المصدر السابق (١٧٦/٤).



وتحدث أيضاً عن بعض الظواهر الفاسدة التي قد شاعت وتفشت في البلاد ومنها شيوع الرشوة والتي كان الحكام هم السبب الرئيس في انتشارها، فبَيَّن أمرَها عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٨) حيث ذَكَرَ مما قيل في معنى هذه الآية الكريمة، قوله: " لا تُصانعوا بأموالكم الحُكَّام وتَرْشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها"(١)، ثُمَّ ذَكَر ما يُرَّجح هذا القول عن غيره ثُّمَ قال: "فالحُكام اليوم عين الرِّشا لا مظنته، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ! " (٢).

ومن الظواهر التي حَذَّر منها القرطبي أيضاً انتشار الظلم الذي له الأثرُ البالغ في تدمير الشعوب والمجتمعات، لا سيما إذا كان من الولاة والحُكام، فبظلمهم تنقص الأرض، ولذلك جعل القرطبي نَقْص الأرض بِجَوْر وُلاتها من المعاني التي يشملها قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (الرعد: ٤١) فقال: "وهذا صحيح معنى، فإنَّ الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة " (٣).

وكأنه يُشير إلى ما يحصل في زمانه من الظلم السائد، والقهر البائد على الضَعَفَةِ والفقراء، من قِبَل الحُكام والولاة الطغاة الذين لا يخافون الله، ولا يرقبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذِمَّة.

وقد بَيَّن مدى المشقة التي لحقت بالناس من جَراء ما أحدثه الظلمة في عصره، من الضرب بالسياط، والتعذيب بغير حق، فَذَكَر عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (الشعراء: ١٣٠) معاني البطش، وبَيَّن أنَّ هذه الآية نَزَلَت خبراً عمن تقدم من

---

(١) تفسير القرطبي (٢/٣٣٧).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٣٨).

(٣) المصدر السابق (٩/٢٨٤).



الأمم، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم، ثُمَّ قال: " وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثيرٍ من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وَلِيتَها البحرية (١)، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق "(٢).

وهذا التنـــزيل يدل على فكرٍ سياسيٍ ثائرٍ من الإمام القرطبي رحمه الله، والذي ينتج عن اهتمامه بواقعه الذي يدور من حوله، فيُعاني بمعاناته، ويسعد لسعادته، خاصةً إذا قارنَّاه ببعض معاصريه الجامدين من العلماء الذين لا حِراك لهم ولا أَثَر !!.

رابعاً: شكواه من أهل مصر:

عاش القرطبي رحمه الله فترةً طويلةً في البلاد المصرية، - وذلك عندما نَزَح من بلاده الأندلس بسبب الحروب والدمار الذي حَلَّ بها وما كان من استيلاء النصارى عليها - إلى أن مات فيها (سنة ٦٧١هـ)، مما جعله يعيش في ذلك الواقع المصري ويعايش أحداثه، إلاَّ أنه من خلال النظر في تفسيره يُلاحظ من أنه قد أبدى الشكوى(٣) والتضجر من بعض الأعمال التي تصدر من أهلها، فبين بعضها من خلال تنـــزيل الآيات عليها.

فلَمَّا مَرَّ على قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩) تكلم عن الغيب وأنَّ علمه راجع إلى الله تعالى، ثُمَّ بيَّن ما يحصل في زمانه، لا سيما بالديار المصرية من اتخاذ الناس الذين يدَّعون علم الغيب من الكهنة والمُنجمين سبيلاً لهم إلى معرفة ما يصير إليه حالهم من الصحة أو المرض، والفقر أو الغنى.. فقال: "قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المُنجمين والكُهّان، لا سِيّما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المُنَجِّمين، بل ولقد انخدع كثيرٌ

(١) اسم يُطلق على المماليك، وسُموا بذلك لكون التجار جلبوهم عن طريق البحر، وهؤلاء المماليك البحرية هم الذين حكموا مصر على أثر انقراض الدولة الأيوبية، وقد دام ملكهم إلى سنة (٧٩٢هـ). يُنظر: سير أعلام النبلاء (١٩٢/٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١١٥/١٣).

(٣) وقد جمع هذه الشكاوى مشهور حسن سلمان في رسالةٍ سماها (شكوى القرطبي من أهل زمانه).



من المنتسبين للفقه والدِّين، فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين، فَبَهْرَجوا عليهم بالمُحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال " (١).

ومن ذلك أيضاً ما قاله عند قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (النور: ٣٠) حيث بيَّن أنَّ العلماء قد حرموا من خلال هذه الآية الكريمة دخول الحمام بغير مئزر، وذكر بعض الأدلة على ذلك ثُمَّ قال: " أما دخول الحمام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدِّين ؛ لغلبة الجهل على الناس، واستسهالهم إذا توسّطوا الحمام رَمَوا مآزرهم، حتى يُرى الرجل البَهيّ ذو الشيبة قائماً منتصباً وسط الحمام وخارجه بادياً عن عورته ضامّاً بين فخذيه ولا أحد يُغيّر عليه.

هذا أمرٌ بين الرجال فكيف من النساء ! لا سيّما بالديار المصرية ؛ إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ! " (٢).

وقد سبق ذكر بعض التنـــزيلات التي ساقها القرطبي على بعض المظاهر الاجتماعية في بلاد مصر وهي منثورة في النقاط السابقة.

وعلى هذا فإنه يُمكِن استخلاص بعض النتائج والفوائد من خلال النصوص السابقة التي نَزَّل القرطبي رحمه الله بعض الآيات عليها:

١- إنَّ أغلب التنـــزيل الذي استخدمه القرطبي إنما هو من قبيل التنـــزيل الذي يُفيد المباشرة والتصريح.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/٧).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/٢٠٣ - ٢٠٤).



٢- إنَّ أغلب التنـــزيل كان في القضايا الفقهية والتشريعية ؛ وذلك نظراً لخصوصية تناوله في هذا التفسير لآيات الأحكام أكثر من غيرها.

٣- دعوة القرطبي رحمه الله الناس إلى الجهاد في سبيل الذود عن حِياض الدين وصيانة أعراض المسلمين.

٤- محاربته لغلاة المتصوفة الذين خالفوا أمر الله وسنة ﷺ ، وكذلك غلاة الزهاد.

٥- سخطه الواضح على بعض حُكام زمانه الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويتعاملون بالرشوة وغيرها من الأمور المحرمة.

٦- شكواه من بعض المظاهر الاجتماعية في بلاد مصر والتي لم يألفها في بلاده.



المبحث الثالث

تنزيل الآيات على الواقع عند ابن تيمية في تفسيره لبعض (سورة الأحزاب)

سبقت الإشارة إلى أنَّ شيخ الإسلام ابن تيميّة (ت: ٧٢٨هـ) رحمه الله من العلماء الذين يَصْدُق عليهم لفظ (المُفَسِّر) ؛ لأنه قد تَصَدَّى لتفسير كلام الله تعالى بالتأليف والتدريس، إلاّ أنَّ تَصَديه هذا لم يكن له ظهورٌ جلي كتَصَديه لعلم العقيدة والكلام، والواضح من خلال المعارك الفكرية التي خاضها مع النصارى والرافضة والمعتزلة وغيرهم من مبتدعة زمانه.

وقد تنبه رحمه الله في آخر حياته لهذه القضية، فندم أشد الندم، وأدرك تقصيره فيه بالنسبة لغيره من العلوم الأخرى فقال: " قد فَتَحَ الله عليَّ... من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء مات كثير من العلماء يتمنوها، ونَدِمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن... " (١).

وإنَّ المتأمل في تفسيره لكلام الله تعالى يُلاحظ أنه قد اتخذ فيه المنهج الدعوي وما يكون به هداية للناس، فلم يمكث طويلاً في المسائل الفرعية أو التي لا يحتاجها إلاَّ المتخصصون، كمسائل النحو والقراءات ونحوهما، بل حَلَّق في القضايا الإيمانية والتربوية والدعوية التي تُؤثر في النفوس، وتُطهر القلوب، فَتُجَلّيها لمعرفةِ خالقها سبحانه.

وقد كانت مسألة التنـــزيل تُمَثِل أمراً مهماً في منهجه رحمه الله، وهذا واضح من خلال تبنيه لِمسألة العبرة بعموم اللفظ فقال رحمه الله: " والناس وإن تنازعوا في اللفظ

(١) أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن رُشَيِّق المغربي (ت: ٧٤٩هـ) ص (٢٢٢)، ضمن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: محمد عزير شمس وآخر.



العام الوارد على سبب، هل يختص بسببه ؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إنّ عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعيّن، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتَعمُ ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ! والآية التي لها سبب معيّن إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنـــزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنـــزلته أيضاً " (١).

وقد اتخذ أيضاً مسألة القياس والاعتبار من المسائل التي لها تَعلق كبير بقضية التنـــزيل بين ما يكون في الواقع ومقارنته بما يُشابهه في القرآن فقال: " وإنما قَصَّ الله علينا قصص من قَبلنا من الأمم لتكون عبرةً لنا.

فنُشَبه حالنا بحالهم، ونَقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شَبَه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شَبَه بما كان للكافر والمنافق من المُتَقدمين " (٢).

وقال أيضاً: ".. وقال في فرعون: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٦) أي مثلاً يُعتبر به، ويُقاس عليه غيره، فمن عمل بمثل عمله جُزي بجزائه ؛ ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (النور: ٣٤) وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التي يُعتبر بها ويُقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة، كما قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١) فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم، وعلم أنَّ الله يُسعده في الدنيا والآخرة، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعَلِم أنَّ الله يُشقيه في الدنيا والآخرة.." (٣).

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص (٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٢٥).

(٣) المصدر السابق (١٣/١٥ - ١٦).



وجعل أكثر المواطن التي تكون مظان التنـــزيل هي الحوادث والقصص التي يسوقها القرآن ومن ذلك قوله: " وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المُعتَبَر به ليستفاد حُكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع.. ونظير ذلك كله: القصص، فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار ولا يُمكن هناك تعديد ما يُعتبر بها ؛ لأنَّ كل إنسان له في حالة منها نصيب، فيقال فيها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ويُقال عَقِب حكايتها فاعتبروا يا أولي الأبصار " (١).

وإنَّ من أبرز القضايا والموضوعات التي كانت تُؤرق هاجس شيخ الإسلام، وتُشَكِّل أمراً مهماً في حياته، هي تحرير المسلمين من رِق العبودية لغير الله تعالى، ومجاهدة من يُحاول استرقاق المسلمين وإذلالهم.

ولذلك نجده قد رفع راية الجهاد، وحَثَّ على الإقدام فيه والمشاركة من أجل تحقيق العبودية لله تعالى، والتضحية في سبيله سبحانه.

ولَمَّا كان المسلمون في ذلك العصر يعيشون معارك طاحنة مع التتار، وما نَتَجَ عنها من التخريب والتدمير، فإنَّ شيخ الإسلام رحمه الله قد تأمل في هذا الواقع ورأى بأنه ليس بدعاً من الأمر، وليس شيئاً جديداً على واقع الأمة الإسلامية، بل له أمثال ونظائر عبر مَرِّ العصور.

ومن ذلك ما حَدَثَ للنبي ﷺ في كثير من غزواته ومعاركه ضد الكفار، والتي من بينها غزوة الأحزاب التي أنزل الله تعالى فيها سورةً تتلى إلى يوم القيامة، تصف أحداث تلك الغزوة وما دار فيها من حال المسلمين وحال أهل الكفر والمنافقين.

فناسب أنْ ينـــزل شيخ الإسلام هذه الآيات من سورة الأحزاب على ما حَدَث في واقعه من دخول التتار بلاد المسلمين سنة (٧٠٠هـــ) ومحاربتهم لهم (٢)، فكان هذا الواقع واقعاً مشابهاً لغزوة الأحزاب التي كانت في العهد النبوي.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٧/١٤).

(٢) تُنظر تفاصيل هذه الحادثة في البداية والنهاية (١٥/١٤ - ١٧).



فقال رحمه الله: ".. فإذا قرأ الإنسان (سورة الأحزاب) وعَرَف من المنقولات في الحديث، والتفسير، والفقه، والمغازي كيف كانت صفة الواقعة التي نَزَلَ بها القرآن، ثُمَّ اعتبر هذه الحادثة بتلك، وَجَدَ مصداق ما ذكرنا.

وأنَّ الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة - الإسلام، الكفر، النفاق - كما انقسموا في تلك، وتبيَّن له كثير من المُتَشَبهات " (١).

وقد تناول في هذا التنـــزيل عدة موضوعات كانت موضع تشابه بين الحادثتين ومنها ما يلي (٢):

١- مختصر القصة:

" وكان مختصر القصة أنَّ المسلمين تَحَزَّبَ عليهم عامة المشركين الذين حَولَهم، وجاؤوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين، فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد وأشجع وفزارة وغيرهم من قبائل نجد، واجتمعت أيضاً اليهود، من قريظة والنضير، فإنَّ بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك كما ذكر الله في سورة الحشر، فجاؤوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ ومجاورون له قريباً من المدينة، فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة وهم بقدر المسلمين مرات متعددة، فرفع النبي ﷺ الذرية من النساء والصبيان في آطام المدينة وهي مثل الجواسق (٣)، ولم ينقلهم إلى موضع آخر، وجعل ظهرهم إلى سلع، - وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة، وكان عدواً شديد العداوة، ولو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٤٠).

(٢) تُنظر بقية الموضوعات (٢٨/٤٤٣ - ٤٦٧).

(٣) **الجواسق**: جمع جوسق، وهو الحصن، وأصله كَوْشَك بالفارسية.
يُنظر: لسان العرب (٢/٢٨٤).



وفي هذه الحادثة تَحَزَّبَ هذا العدد من مغول وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم، ونَزَلَ هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام مع قلة من بإزائهم من المسلمين ومقصودهم الاستيلاء على الديار واصطلام أهلها، كما نَزَلَ أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين " (١).

٢- شِدةُ الريح والبرد وقت الحرب:

" وكان عامَ الخندق بردٌ شديد، وريحٌ شديدةٌ منكرةٌ بها صَرَفَ الله الأحزاب عن المدينة كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (الأحزاب: ٩).

وهكذا هذا العام، أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد، على خلاف أكثر العادات، حتى كره أكثر الناس ذلك، وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك، فإنَّ لله فيه حكمة ورحمة، وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صَرَفَ الله بها العدو، فإنه كَثُرَ عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك من خيلهم ما شاء الله.

وهلك أيضاً منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال.

حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بَيَّض الله وجوهنا، أعداؤنا في الثلج إلى شعره ونحن قعود لا نأخذهم ! وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين لو يصطادونهم، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة " (٢).

٣- مُحاصرة الأعداء المسلمين من أكثر الجهات:

قال تعالى في شأن الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٠).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٤٣ - ٤٤٤).
(٢) المصدر السابق (٢٨/٤٤٥).



" وهكذا هذا العام، جاء العدو من ناحيتي علو الشام، وهو شمال الفرات قبلي الفرات، فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً، وبلغت القلوب الحناجر لِعِظَمِ البلاء، لا سيَّما لَمَّا استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وتَقَرب العدو وتوجهه إلى دمشق، وظن الناس بالله الظنونا.. " (١).

٤- تخاذل أهل النفاق، وطلبهم الانسحاب أو الاستسلام:

قال تعـــالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ (الأحزاب: ١٣).

" وكان النبي ﷺ قد عَسكر بالمسلمين عند سَلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا لكثرة العدد فارجعوا إلى المدينة، وقيل: لا مقام لكم على دين محمد ﷺ فارجعوا إلى دين الشرك، وقيل: لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لَمَّا قَدِم العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تُسكن، بل ننتقل عنها إمّا إلى الحجاز واليمن، وإمّا إلى مصر، وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم " (٢).

٥- اعتذار المنافقين من الخروج إلى القتال بحُجج واهية:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٣).

" وكان قومٌ من هؤلاء المذمومين يقولون، والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة: يا رسول الله ! إنَّ بيوتنا عورة، أي مكشوفةٌ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٤٦).

(٢) المصدر السابق (٢٨/٤٥٠).



ليس بينها وبين العدو حائل...

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ لأنَّ الله يحفظها ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحُجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يُمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يُمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ ..."(١).

٦- المعاهدة على المقاومة وعدم الفرار يوم الزحف:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٥).

"وهذه حال أقوام عاهدوا ثُمَّ نكثوا قديماً وحديثاً في هذه الغزوة، فإنَّ في العام الماضي، وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يُقاتل ولا يفر، ثُمَّ فَرَّ منهزماً لَمَّا اشتد الأمر " (٢).

٧- انصراف العدو من أرض المعركة:

قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٥)

" فإنَّ الله صَرَفَ الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَبَا، ريح شديدة باردة، وبما فَرَّقَ به بين قلوبهم حتى شَتت شملهم ولم ينالوا خيراً ؛ إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٥١ - ٤٥٢).

(٢) المصدر السابق (٢٨/٤٥٣).



والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المُزعج ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة، وكنَّا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر، فلا تكرهوا، فكان من حكمته أنه فيما قيل: أصاب قازان (١) وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم.

وابتُلي به المسلمون ليتبيَّن من يَصبر على أمر الله وحكمه، ممن يَفِرُ عن طاعته وجهاد عدوه..

فَلمَّا ثَبَّتَ الله قلوب المسلمين، صَرَفَ العدو جزاءً منه وبياناً أنَّ النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار " (٢).

وبهذه المقارنة النفيسة تتجلى أهمية التنـــزيل عند ابن تيمية رحمه الله، حيث بَيَّن شيئاً من فضائل الجهاد، وأثره في النفوس المؤمنة، وأنَّ هذا التنـــزيل ربطٌ لواقع الأمة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأنَّ الأحداث هي الأحداث، مهما تغير الزمان والمكان.

(١) اسمه محمود بن أرغون بن أبغا بن جنكز خان، وهو ملك التتار في وقته، وقد أعلن إسلامه سنة (٦٩٤هـ) وأعلن الإسلام ديناً رسمياً في إيران، فدمر الكنائس المسيحية فيها، والمعابد اليهودية، والأصنام البوذية، إلاَّ أنه كان همجياً، حيث غزا بلاد الشام عدة مرات وعاث فيها الفساد، توفي سنة (٧٠٣هـ).

يُنظر: البداية والنهاية (١٣/٣٦٠)، (١٤/٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٦٣).



القسم الثاني

تطبيقات التنـزيل المعاصرة من خلال تفسير المنار، ومجالس التذكير

وفيه فصلان:

الفصل الأول: محمد رشيد رضا وتفسيره (المنار).

الفصل الثاني: عبد الحميد بن باديس وتفسيره (مجالس التذكير).



الفصل الأول

محمد رشيد رضا وتفسيره (المنار)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة عن حياة الشيخ رشيد رضا.

المبحث الثاني: منهج الشيخ رشيد رضا في تنــزيل الآيات على الواقع.

المبحث الثالث: أبرز القضايا في عصر الشيخ رشيد رضا وتنــزيل الآيات عليها.



المبحث الأول

ترجمة موجزة عن حياة الشيخ رشيد رضا (١)

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن السيد منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب.

ولد يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الأول سنة ١٢٨٢هـ، في قرية (القلمون) - على شاطئ البحر جنوب طرابلس الشام على بُعد ثلاثة أميال - حيث نشأ بها، وتعلم فيها القرآن والخط وقواعد الحساب، ثُمَّ دخل المدرسة الرشيدية بطرابلس الشام، ثُمَّ التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس أيضاً فتعلم فيهما العلم والخير الكثير.

وفي هذه الفترة من شبابه تعلق رحمه الله بكتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي، حيث جعله يميل إلى الزهد واحتقار الدنيا وترك ملذاها.

ويشاء الله تعالى أن تكون نقطة تحوله مما هو فيه إلى حياة أخرى جديدة، تدعو المسلمين إلى استرداد حضارهم، وإعادة مجد الإسلام وعزته، على أعداد من جريدة (العروة الوثقى) التي كان يقوم على تحريرها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، فكانت سبباً في تغيره من التصوف المجرد إلى الاهتمام بإصلاح المسلمين والذود عنهم.

وقد تحدث رحمه الله عن سر هذا التحول العجيب الذي طرأ على روحه فقال: "كنت من قبل اشتغالي بطلب العلم في طرابلس الشام مشتغلاً بالعبادة ميَّالاً إلى التصوف، وكنت أنوي بقراءة القرآن، الاتعاظ بمواعظه، لأجل الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.

ولَمَّا رأيت نفسي أهلاً لنفع الناس بما حَصَلت من العلم على قِلَّته، صرتُ أجلس إلى العوامّ في بلدنا أعظهم بالقرآن مُغَلِّباً الترهيب على الترغيب، والخوف على الرجاء،

(١) تُنظر ترجمته في: الأعلام (١٢٦/٦)، ومعجم المؤلفين (٢٩٣/٣)، والتفسير والمُفَسِّرون للذهبي (٤٠٠/٢)، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير للدكتور فهد الرومي (١٧٠/١)، وموقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث لشفيق شقير ص (٧٣).



والإنذار على التبشير، والزهد في الدنيا على القصد والاعتدال فيها.

في أثناء هذه الحال الغالبة عليّ ظفرتْ يدي بنسخ من جريدة (العروة الوثقى) في أوراق والدي، فلَمَّا قرأت مقالاتها في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وإعادة مجد الإسلام وسلطانه وعزّته، واسترداد ما ذهب من ممالكه، وتحرير ما استَعْبد الأجانبُ من شعوبه، أثَّرت في قلبي تأثيراً دخلت به في طورٍ جديد من حياتي، وأُعجبت جدّ الإعجاب بمنهج تلك المقالات في الاستشهاد والاستدلال على قضاياها بآيات من الكتاب العزيز، وما تضمنه تفسيرها ممّا لم يَحُمْ حوله أحدٌ من المُفَسِّرين على اختلاف أساليبهم في الكتابة، ومداركهم في الفهم...

توجهت نفسي بتأثير (العروة الوثقى) إلى الهجرة إلى السيّد جمال والتلقّي عنه، وكان قد جاء إلى الآستانة، لاعتقادي أنه لا يستطيع طول المقام فيها، وعلّلت ذلك بقولي: " لأنَّ بلاد الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ويعافه لأنه دواء ".

وبعد أن توفاه الله تعالى إليه فيها، تعلَّق أملي بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده ؛ للوقوف على أخباره وآرائه في الإصلاح الإسلامي، وما زلت أتربص الفرص لذلك حتى سنحت لي في رجب سنة (١٣١٥هـ)، وكان ذلك عقِب إتمام تحصيلي للعلم في طرابلس، وأخذ شهادة العالِمية أو التدريس من شيوخي فيها، فهاجرت إلى مصر، وأنشأت المنار للدعوة إلى الإصلاح... " (١).

جهود الشيخ رشيد رضا الإصلاحية:

لم يتردد السيد رشيد رضا رحمه الله في الدعوة إلى إصلاح واقع الأمة المتخلف وذلك على جميع الأصعدة الإسلامية والاجتماعية والسياسية ؛ إذ كانت له جهود كبيرة يشهد لها القاصي والداني منها ما يلي (٢):

---

(١) تفسير المنار (١/١٤ – ١٥).

(٢) نقلاً من كتاب: موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث – بتصرف – ص (٧٦ – ٨٠).



١- مجلة المنار:

" كان من أغراض السيد رشيد الباعثة له على الانتقال من الشام إلى مصر إنشاء صحيفة إصلاحية، إلا أنه أحب أخذ موافقة أستاذه أولاً، فاستشاره في ٦ شعبان ١٣١٥هـ، وبعد نقاش وحوار وافق الأستاذ بعد أن اقترح ثلاثة أمور:

- أن لا يتحيز لحزب من الأحزاب.
- أن لا يرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض له بذم أو انتقاد.
- أن لا يخدم أفكار أحدٍ من الكبراء.

ثُمَّ شاوره في اختيار اسمٍ لها، وعَرَض عليه مجموعة من الأسماء فاختار اسم المنار، وصَدَر العدد الأول في ٢٢ شوال ١٣١٥هـ، وأعلنت فيه أغراضها، وهي نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وإقامة الحُجة على أن الإسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة، وأن غاية رشيد من إنشاء المنار مواصلة السير على منهج (العروة الوثقى)، وآخر ما طُبع من المنار الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ " (١).

٢- الإصلاح التربوي والتعليمي:

وقد أيَّد الشيخ رضا أستاذه في مسعاه لإصلاح التعليم والأزهر، وكان يُدافع عن إصلاحاته بشدة، وسار على خطواته - بعد أن توفاه الله تعالى إليه - في الدعوة إلى إصلاح الأزهر من جميع الجوانب، وألَّف في ذلك كتاباً ضمَّنه آراءَه وتجاربه في هذا الميدان وذلك في سنة ١٣٥٢هـ بعنوان (الأزهر والمنار).

أمَّا عن إصلاح التعليم بشكل عام، فقد انتقد الشيخ واقع التربية والتعليم وشمل انتقاده المؤسسات التعليمية كافة، الحكومي والأهلي والمدني والديني، وكان من أوائل من

(١) المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (١/١٧٦).



نبهوا إلى خطورة خلو مصر والعالم الإسلامي من جامعة علمية عالية إذا ما استثنيت دار الفنون في الآستانة.

وقام الشيخ رضا نفسه بإنشاء مدرسة كان يأمل بتخريج دعاة منها لسائر أقطار العالم، وقد حاول إنشاءَها في الآستانة فلم يستطع، فأنشأها في مصر، وسمى هذه المدرسة باسم (دار العلم والإرشاد).

وقد تَمَّ افتتاحها في ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ، وكانت تُعطي الطالب شهادة مُرشد بعد ثلاث سنوات تؤهله للدعوة والإرشاد بين المسلمين، أما إذا واصل ثلاث سنوات أخرى فيُصبح داعياً من الدعاة لغير المسلمين للدخول في الإسلام، وكان لهذه المدرسة أثر كبير في إعداد الدعاة.

٣- الإصلاح السياسي:

كان للشيخ رضا نشاط سياسي بارز، وعلى وجه الخصوص بعد وفاة أستاذه الشيخ محمد عبده، والذي كان يكبح جماحه كلَّما همَّ بالانطلاق نحو معترك السياسة.

ولم يترك الشيخ رضا قضية من قضايا المسلمين المهمة آنذاك إلاَّ وتعرض لها، فقد حَذَّر المسلمين من مخططات الإنكليز، وكتب عن الاستعمار الإيطالي عندما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب، وكافح كفاحاً مريراً ضد الاستعمار الفرنسي، وكان من الأوائل الذين تنبهوا إلى مخاطر الحركة الصهيونية، ونبَّهوا إلى أهدافها ووسائلها.

وشارك الشيخ رضا مشاركة واسعةً في الجمعيات والأحزاب السياسية، نشير إلى أبرزها:

١- **جمعية الشورى العثمانية:** أُسست في القاهرة عام ١٨٩٨م، وكان رشيد رضا رئيس مجلس إدارتها، وكانت أهدافها تدور حول نقد الحُكم الفردي، وإبراز مزايا الحُكم والشورى والدعوة لإعلان الدستور.

٢- **حزب الاتحاد السوري:** تأسس في مصر في سبتمبر ١٩١٨م، وكان رئيسه



الأمير ميشيل لطف الله اللبناني الأصل [1]، وكان الشيخ رضا نائباً للرئيس، وكان هدف الحزب الكفاح من أجل القضية السورية في الميدان السياسي المحلي والدولي.

٣- **جمعية الشبان المسلمين:** وقد تأسست عام ١٩٢٧م، وكانت هذه الجمعية من أقرب الجمعيات إلى أهداف الشيخ رضا، والأكثر تعبيراً عن فكره الإصلاحي، وكان الشيخ عضواً نشيطاً فيها، ومن خلالها تَعَرَّف على الشيخ حسن البنا، وحصلت بينهما مراسلات عدة تدور حول مسائل علمية والبحث في أحوال المسلمين العامة وسبل النهوض بهم وارتقائهم.

مؤلفاته:

كان للشيخ رشيد رضا رحمه الله نصيبٌ وافرٌ من الكتابة والتأليف، ولو لم يكن له سوى ما كتبه في التفسير، ومقالات المنار لكفى بها بركةً ونفعاً، إلاَّ أنه رحمه الله لم يكتف بهذا القدر، بل أراد أن ينفع الأمة ويوجهها بكل ما أُوتي من عزمٍ وقوة، فكانت له العديد من المؤلفات المطبوعة ومنها الآتي:

١- تفسير المنار.
٢- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.
٣- نداء للجنس اللطيف.
٤- الوحي المحمدي.
٥- المنار والأزهر.

(١) ميشيل بن حبيب بن جريس لطف الله، ولد سنة (١٢٩٧هـ)، وجيه كان له نشاط سياسي أيام الثورة السورية (١٩٢٥م)، حيث أنشأ مع بعض السوريين مكتباً في القاهرة للعمل من أجل القضية السورية، إلاَّ أنه تَكَشَّف مسعاه عن رغبته في أن يكون له أو لأحد إخوانه إمارة سورية، فأعرض عنه معظم من كان = = معه، توفي في القاهرة سنة (١٣٨١هـ).
يُنظر: الأعلام (٧/٣٣٩ - ٣٤٠).



٦- ذكرى المولد النبوي الشريف.

٧- الوحدة الإسلامية.

٨- يُسر الإسلام.

٩- الخلافة.

١٠- الوهابيون والحجاز.

١١- السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة.

١٢- مناسك الحج.

١٣- الربا والمعاملات في الإسلام.

١٤- مساواة الرجل بالمرأة.

١٥- رسالة في أبي حامد الغزالي.

١٦- المقصورة الرشيدية.

١٧- شبهات النصارى وحجج الإسلام.

١٨- خلاصة السيرة المحمدية.

١٩- تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن.

٢٠- ترجمة القرآن.

وفاته:

خرج الشيخ رشيد رضا رحمه الله يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ لوداع الأمير سعود بن عبد العزيز في السويس، وأثناء عودته بالسيارة وقبل وصوله مصر الجديدة كان مُنصرفاً لقراءة القرآن، وما زال يقرأ حتى أصابه دوار من ارتجاج السيارة وتقيّأ ثُمَّ عاد إلى القرآن يقرؤه ثُمَّ اتكأ على ظهره في السيارة وقد فاضت روحه في منتصف الثانية من بعد ظهر هذا اليوم، ودفن رحمه الله بجوار أستاذه محمد عبده.



المبحث الثاني
منهج الشيخ رشيد رضا في تنزيل الآيات على الواقع

عندما دخل رشيد رضا مصر، وكان قاصداً لقاء محمد عبده، كان أول اقتراح طرحه على شيخه بعد لقائهما، هو كتابة تفسيرٍ للقرآن الكريم بأسلوب مناسب للعصر، ينفع الله به الأمة.

إلاَّ أنَّ الشيخ محمد عبده كان متردداً بعض الشيء، فما زال كذلك حتى فتح الله على قلبه، ورضي بأن يُلقيه في رحاب الأزهر، وكان ذلك في غرّة محرم سنة ١٣١٧هـ وانتهى منه في منتصف محرم سنة ١٣٢٣هـ عند الآية (١٢٦) من سورة النساء، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين.

وقد رأى الشيخ محمد عبده أن يكون تفسيره مسموعاً تتلقفه أفئدة الناس، وحجته في ذلك هو أنَّ " الكلام المسموع يُؤثِّر في النفس أكثر مما يُؤثِّر الكلام المقروء ؛ لأنَّ نظر المتكلّم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام - كل ذلك - يُساعد على فهم مراده من كلامه، وأيضاً يمكِّن السامع أن يسأل المتكلِّم عما يخفى عليه من كلامه " (١).

مما جعل تلميذه رشيد رضا يتبنى قضية الكتابة ويدون كلَّ ما ورد عن شيخه في هذا الدرس حِفظاً له من الشتات والضياع، فكان سبباً في حفظ آراء شيخه وتفسيره.

وقد تحدث رشيد رضا رحمه الله عن تجربته في كتابة هذا التفسير - أسوقها بطولها - فقال: " وكنت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكِرات أُودعها ما أراه أهمّ ما قاله، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أُبيّضه، وأمدَّه بكل ما أتذكّره في وقت الفراغ.

ولم ألبث أن اقترح عليّ بعض الراغبين في الاطلاع عليه، من قُرّاء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الإخوان بمصر أن أنشره في المنار.

---

(١) تفسير المنار (١/١٦ - ١٧).



فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨هـــ، وذلك في المجلد الثالث من المنار، وكنت أولاً أُطلع الأستاذ الإمام على ما أُعِده للطبع كلّما تيّسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقّح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات، ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يَرَه قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب بل مُعجباً به، على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً إليه، بل كان تفسيراً للكاتب، من إنشائه، اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جلّ ما استفاده منها... " (١).

وبعد هذا النص الواضح يتضح أنَّ تفسير المنار عبارة عن دروس كان الشيخ محمد عبده يُلقيها في جامع الأزهر، ويقوم رشيد بكتابتها بأسلوبه وطريقته، إلى أن مات شيخه واستقل هو بعد ذلك في كتابة التفسير إلى أن وصل إلى الآية (١٠١) من سورة يوسف.

وقد امتاز تفسير (المنار) بمزايا كثيرة تميّزه عن غيره من تفاسير عصره التي كانت تدور حول تحشية النص وتلخيصه، وتطبيق ما يحتويه من مسائل في النحو والتراكيب والأحكام دون النظر إلى هداياته واعتباراته.

ومن هذه المميزات: اهتمامه بقضية تنـــزيل الآيات على الواقع التي كانت مثار عنايةٍ واهتمام، وشيوع وانتشار في صفحات تفسيره.

ومن ذلك ما قاله رشيد عند قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٤) حيث ذكر بعد تفسيره لهذه الآية نظائر لها من القرآن ثُمَّ قال: "فهذه الآيات وأمثالُها تُؤيد الآية التي نُفسِّرها في ابتلاء الله المؤمنين الصادقين الداعين إلى الحق، ولكنك تجد أكثر المسلمين الذين تُتلى عليهم دائماً في غفلةٍ عنها، فمن لم يغفل عن تصوّر المعنى في ذهنه يغفل عن انطباقه على الواقع، ولذلك تجد الكثيرين منهم يذهبون إلى أنَّ من يُؤذى في سبيل الحق

(١) تفسير المنار (١/١٨ - ١٩).



بالقول أو بالفعل، كان وقوع الأذى عليه دليلاً على أنه مُبطلٌ لا يطلب الحق !! فما أجهلهم بكتاب الله ؟ وما أبعدهم عن العلم بسنن الله ؟ وما أغفلهم عن تأويلهما في خلق الله ؟ ! (١).

وقال أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) "ولَمَّا كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما يُنسى أو يقل الاعتبار به نبههم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى"(٢).

ولَمَّا ذَكَر الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) أكد على قضية التنـــزيل فقال: " وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع فيستقيمون على الطريقة، هم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة ؛ لأنهم يتجنبون ويتقون نتائج الإهمال التي يظهر لهم أنَّ عاقبتها ضارّة، فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم وإسلامهم بهذه الآيات، ولينظروا أين مكانهم من هدايتها، وما هو حظهم من موعظتها ؟ " (٣).

فهذه النصوص وغيرها تظهر لمن كان له أدنى نظر في تفسير المنار وضوح قضية التنـــزيل فيه، وأنه كُتب بروح العصر وَنَفَسه.

وقد اتخذ الشيخ رشيد رضا منهجاً في التنـــزيل أثناء تفسيره لكلام الله تعالى ومنه ما يلي:

١- أنه انطلق في تأصيل قضية التنـزيل من خلال مسألتين:

المسألة الأولى: اعتماده في قضية التنـــزيل على القاعدة المشهورة (العبرة بعموم

(١) تفسير المنار (٢/٢٥٤).
(٢) المصدر السابق (٤/١٢١).
(٣) المصدر السابق (٤/١٢٣).



اللفظ لا بخصوص السبب)، التي اعتمد عليها أكثر من استخدموا التنـــزيل.

ومن ذلك قوله عندما تكلم عن المنافقين الذين ذُكِروا في فاتحة سورة البقرة: " إنَّ الآيات على عمومها تتناول مَنْ كان منهم في عصر التنـــزيل تناولاً أولياً، وتصف حالهم وصفاً مطابقاً، وهي مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجيء من هذا الصنف " (١).

ونقل مسألة مهمة عن شيخه تَرُدُّ على من يتوهم قَصْر القرآن على عصر النبوة فحسب، ويغفل عن هذه القاعدة العظيمة، حيث قال: " فلا يغتَّرنَّ أحدٌ بقول بعض المُفَسرين: إنَّ هذه الآيات نزلت في المُنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فيتوهم أنها لا تتناوله، وإن كانت منطبقةً عليه ؛ لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهادياً، ولم يستعمل عَقلَه ومشاعره فيما خُلِقَت له، بل اكتفى عن ذلك بتقليد آبائه ومُعاصريه، في كلِّ ما هم فيه... " (٢).

وتكلم أيضاً عن الذي يقرأ القرآن على أنه قصةٌ تاريخية مات من يحكي عنها وكأن القارئ غير معنيٍ بخطابه فقال: " فإن كان مات من كانوا سبب النـــزول، فالقرآن حيٌّ لا يموت ينطق حكمه، ويحكم سُلطانه على الناس في كل زمان.. " (٣).

وذَكَر في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٣) قولين لأهل العلم فيمن نزلت فيهم هذه الآية:

الأول: أهل الصُفَّة.

والآخر: أنها نزلت في قومٍ أصابتهم الجراحات في سبيل الله تعالى، فصاروا زُمْنى فجُعل لهم في أموال المسلمين حقٌ.

(١) تفسير المنار (١/١٣٤).

(٢) المصدر السابق (١/١٦٠).

(٣) المصدر السابق (١/١٣٨).



ثُمَّ قـــال: " والقاعدة الأصولية: أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من اتصف بهذه الصفة من الفقراء، كان له حكم من نزلت فيهم الآية من استحقاق الصدقة " (١).

وفـــي قولـــه تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٢) فَسَّر هذا المثل ثُمَّ قال: " هذا المثل عام يشمل كل من ينطبق عليه في زمن التنـــزيل وغيره وعليه عامة أهل التفسير " (٢).

فهذه النصوص وغيرها تبيّن استناد مدرسة المنار على هذه القاعدة المشهورة، التي تُمثل الانطلاقة الأولى، والركيزة المهمة لقضية التنـــزيل.

المسألة الثانية: صيغ أسباب النـــزول المحتملة، فقال: " وليتذكر القارئ ما نبهنا عليه من قبل في سبب النـــزول، وهو أنهم يذكرون فيه الحوادث التي اقترنت بزمن نزول الآية إذا كانت تُناسبها وإن لم تكن الآية نزلت في الحادثة التي ذكروها خاصة بأن تكون نزلت في سياق هي متممة له، ولكن الراوي رأى أنها تتناول تلك الحادثة، أو ظن أنها نزلت فيها خاصة، وقد يكون مخطئاً في اجتهاده لمنافاة ذلك لأسلوب القرآن البليغ " (٣).

وقال أيضاً: " قد ثبت أنَّ بعض الآيات كانت تصدق على وقائع تحدث بعد نزولها أو قبله فتذكر للاستشهاد أو الاحتجاج بها في الواقعة منها، فيظن من سمعها حينئذ من الصحابة ولم يكن سمعها من قبل أنها نزلت في تلك الواقعة، وكثيراً ما كان يقول الصحابي: إنَّ آية كذا نزلت في كذا - وهو يريد أنها نزلت في إثبات هذا الأمر أو حكمه أو دالة عليه - فيظن الراوي عنه أنها نزلت عند حدوث ذلك الأمر، والصحابي لا يريد ذلك.... " (٤).

(١) تفسير المنار (٣/٧٧).
(٢) المصدر السابق (٨/٣٠).
(٣) المصدر السابق (٥/٨٧).
(٤) المصدر السابق (٧/٢٤٤).



٢- أنه كان يُسمي التنــزيل تطبيقاً [١]:

فبعد أن انتهى من تفسير قوله تعالى: ﴿ تَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ (البقرة: ٢٠) وضع عنواناً قال فيه: " تنبيه صادع في تطبيق القرآن على ما هو واقع وظهور معاني الأمثال المضروبة للمنافقين، في كثيرٍ من العلماء والعامَّة من المسلمين " [٢].

٣- أنه يبدأ التنــزيل - غالباً - بعد أن ينتهي من تفسير الآية الكريمة بقوله: "والعبرة في هذا..." [٣]، ويقصد بذلك الهدايات التي يُمكن أن تُستقى منها، وتنــزل على الواقع المعاصر حتى يعتبر الناس ويتعظوا بهدايات القرآن، في زمنٍ ظهر فيه إعراضهم عنه.

وقد كان يرى بأنَّ هذه التنــزيلات داخلةٌ في التفسير ؛ لأنها تُفيد الاهتداء والاعتبار، ومن ذلك قوله رحمه الله: " إنني أراني غير خارج بهذه الأمثال عن منهج هذا التفسير المراد به التفقه والاعتبار، وأنا أرى الناس يزداد إعراضهم عن الدين والاهتداء بالقرآن، وتقل فيهم القدوة الصالحة " [٤].

٤- أنه كان يشرع في تفسير الآية ثُمَّ يعقبه بالتنــزيل إن كان فيها ما يُناسب تنــزيله على الواقع:

ومثاله ما جاء عند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٣) حيث شرع في تفسير هذه الآية الكريمة، وما تحتويه من معان وبيان، ثُمَّ رأى مناسبة تنــزيلها على عصره وواقعه فقال:

---

(١) يُنظر على سبيل المثال: (١/١٦٠، ٣١٥، ٣٧٦)، (٢/٢٤٥)، (٣/٢٨٢)، (٤/٦١، ١٢١)، (٧/٢٢٤، ٤٣٦)، (٨/٣٠)، (١٠/٣٨).

(٢) تفسير المنار (١/١٦٠).

(٣) يُنظر على سبيل المثال: (٥/١٣٢)، (٧/٢٦٢، ٤٩٨)، (٨/٢٩، ٣٢، ٢٩٦)، (٩/٨٦، ٩١، ٩٨)، (١١/١٩، ٢١، ٢٩٧).

(٤) المصدر السابق (١٠/٣٢).



"ونقول في العبرة بالآية بما يُناسب حال هذا العصر، إنَّ سنة الله تعالى في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة أو كل قرية وبلدة بعث فيها رسول أو مطلقاً رؤساء وزعماء مجرمون يمكرون فيها بالرسل، أو بأن يكون أكابرها المجرمون ماكرين فيها بالرسل في عهدهم، وبسائر المصلحين من بعدهم، وكذلك شأن أكثر أكابر الأمم والشعوب، ولا سيما في الأزمنة التي تكثر فيها المطامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء، يمكرون بالناس من أفراد أمتهم وجماعاتها ؛ ليحفزوا رياستهم ويعززوا كبريائهم ويثمروا مطامعهم فيها، ويمكر الرؤساء والساسة منهم بغيرهم من الأمم والدول لإرضاء مطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم في تلك الأمم والدول.

وقد عظم هذا المكر في هذا العصر، فصار قطب رحى السياسة في الدول، وعظم الإفك بعِظمه لأنه أعظم أركانه... " (١).

وسيأتي مزيد من الأمثلة في المبحث القادم من هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

٥- أنه يورد التنـزيل- أحياناً - ثم يُسهب في الاستطراد والتفصيل فيما يخص الواقع المعاصر له: كما فعل ذلك عندما مَرَّ على آية تحريم الربا، حيث فسَّرَ الآية الكريمة وأبان الكثير من معانيها، و لم يكتف بهذا فحسب بل استطرد فعقد في نهاية المقطع فصلين في الحكمة من تحريم الربا وأدلة ذلك، مستخدماً في ذلك التنـــزيل على واقعه (٢).

وكذلك عندما ذَكَر قصة قوم لوط، وما كانوا يفعلونه من جريمة اللواط، حيث أفاض واستطرد في بيان خطر هذه الجريمة، وعقوبتها، وأثرها على مترفي الحضارة (٣).

وأيضاً لَمَّا شَرَعَ في تفسير سورة التوبة، استطرد في ذكر الجهاد وأثره في واقعه المعاصر (٤) وهلم جراً.

---

(١) تفسير المنار (٣٢/٨).

(٢) المصدر السابق (٩٣/٣).

(٣) المصدر السابق (٤٨١/٨ - ٤٨٦).

(٤) تفسير المنار (٢٧٧/١٠ - ٢٧٩).



٦- أنه استخدم التنـزيل الخفي في بعض الأحوال ؛ درأً للفتنة، أو ستراً على بعض الأفراد أو الجماعات:

ومثاله: عندما انتهى من تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٦) نقل تنــزيلاً خفياً لشيخه محمد عبده وهو يرمي من وراءه إلى مواقف وأحداثٍ حصلت بينه وبين حاكم عصره فيقول: "... فإنّ الحاكم الظالم المستبدّ يكبر عليه أن يُرشد إلى مصلحة، أو يحذر من مفسدة ؛ لأنه يرى أنَّ هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأياً وأرجحهم عقلاً، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف الله تعالى، يرى نفسه فوق الحق، كما أنه فوق أهله في السلطة، فيجب أن يكون رأيه خيراً من جودة آرائهم، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحدٍ منهم أن يقول له: اتق الله في كذا !.

وإنَّ الأمير منهم ليأتي أمراً فيظهر له ضرره في شخصه أو في ملكه ويود لو يهتدي السبيل إلى الخروج منه، فيعرض له ناصح يشرع له السبيل فيأبى سلوكها، وهو يعلم أنَّ فيها النجاة والفوز إلاَّ أن يحتال الناصح في إشراعها فيجعله بصيغة لا تُشعر بالإرشاد والتعليم، ولا بأنَّ السيد المطاع في حاجة إليه " (١).

ومما يدل على أنَّ هذا التنــزيل كان يقصد به الشيخ محمد عبده حاكم البلاد في عصره ما ساقه رشيد بعد ذلك بقوله: "... وقد فهم الأذكياء (٢) أنه يعني بهذا ما يفعله في نصيحة أمير البلاد ".

ولعل السبب في اتخاذ مثل هذا النوع من التنــزيل هو الحرص على درء الفتنة بين عامة الناس، وتعليمهم التلطف في عرض مثل هذه المواقف الحسَّاسة التي يكون في إظهارها جرحٌ أو خدشٌ لمشاعر الوجهاء والكبراء من أصحاب القرار السياسي في البلاد، أو يُخشى منهم البطش والأذى.

---

(١) المصدر السابق (٢/٢١١).

(٢) أي من الطلاب الذين حضروا درس الشيخ أثناء طرحه لهذا التنــزيل.



٧- **أنه استخدم التنـزيل العكسي:** كمـــا جـــاء ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٣٤) فلمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أولياؤه هم المتقون أراد رشيد أن ينـــزل هذه الآية تنـــزيلاً عكسياً على ما يكون في واقعه من فهم بعض الناس لمعنى الولاية فهماً خاطئاً، وهو أنَّ الأولياء هم المجانين والمجاذيب فقال: " هذا وإنَّ جماهير المسلمين في أكثر بلادهم صاروا في هذا العصر أجهل من مشركي قريش في ذلك العصر، بمعنى ولاية الله وأوليائه - سواء في ذلك ولاية الحكم والسلطان وهي الإمامة العامة، وولاية التقوى والصلاح، وهي الإمامة الشخصية الخاصة، وجهلهم بهذه أعم وأعمق، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجاذيب الذين ترتع الحشرات في أجسادهم النجسة، وثيابهم القذرة، ويسيل اللعاب من أشداقهم الشرهة، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات، والدعاوى الباطلة للكرامات، والشرك بالله بدعاء الأموات، ومن أدلتهم عليها ما يتخيلون من رؤى الأنبياء والأقطاب في المنام، وما يزعمون من تلقيهم عنهم ما تنبذه شريعة المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى صار ما هم عليه دين شرك منافياً لدين الإسلام... " (١).

٨- **أنه اهتم بقضايا التنـزيل الاجتماعي:** نظراً لجهل الناس بما يدور في واقعهم من الحلال والحرام، وإشاعة الحيل والمتشابهات التي لا يُمكن أن تُوَضَّح إلا من قبل العلماء الراسخين الذين لهم معرفة كبرى بواقعهم المعاصر.

ولذلك فإن التفسير مليءٌ بالتنـــزيلات الاجتماعية الواضحة من خلال الحديث عند الآيات التي تُلامس المجتمع الإسلامي بالدرجة الأولى، كالكلام عن الخمر، والربا، والزنا، واللواط، والطلاق ونحو ذلك.

---

(١) تفسير المنار (٥٦٧/٩).



حتى عُدَّ تفسير المنار من التفاسير التي اهتمت باللون الاجتماعي، بل هو رائد مدرسة التفسير الاجتماعي [١].

٩- أنه اهتم بتنـزيلات شيخه فنقل الكثير منها خاصة في الأجزاء الأربعة الأولى من التفسير [٢]:

ومن ذلك ما نقله عن شيخه عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٨).

حيث قال: " وذكر الأستاذ الإمام في تفسير الآية ما عليه المسلمون في هذا العصر، ولا سيّما في بلاد مصر، من كثرة التقاضي والخصام، والإدلاء إلى الحكّام، حتى إنَّ منهم من لا يُطالب غريمه بحقه إلاّ بواسطة المحكمة، ولعله لو طالبه لما احتاج إلى التقاضي، ومنهم من يُحاكم الآخر لمحض الانتقام والإيذاء وإن أضرَّ بنفسه " [٣].

---

(١) يُنظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص (٣٨٣ - ٤١٠).

(٢) يُنظـر علـى سبيل المثال: (١/٦٣، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣١٥، ٣٥٤، ٣٥٨)، (٢/١٨٦، ٢١١، ٣١٦، ٣٦٣)، (٣/٩٤)، (٤/٦١، ٢٨٨، ٣١٦).

(٣) تفسير المنار (٢/١٧٢).



المبحث الثالث

أبرز القضايا في عصر الشيخ رشيد رضا وتنزيل الآيات عليها

يُعتبر تفسير المنار من التفاسير التي فاضت بقضية التنـــزيل سواءً أكان التنـــزيل مباشراً أم غير مباشر، تاماً أم جزئياً.

والسبب في ذلك يرجع إلى شخصية المؤلف الاجتماعية التي تحس بواقع الأحداث من حولها، وتتعامل معها، وتتأثر بها، وتُؤثر فيها.

ومن ثَمَّ فإن التفسير يحتاج إلى مزيدٍ من النظر والتأمل، لاشتماله على كثيرٍ من القضايا التي أفرزها ذلك الواقع وأهله، وكان يمكن معالجتها من خلال كتاب الله تعالى.

لذا فإني أُورد بعضاً منها، وأُبيّن كيف استطاع الشيخ محمد رشيد تنـــزيل الآيات عليها:

أولاً: موقفه القضايا الاجتماعية: وهي التي قام عليها مُعظم التفسير، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: استجابته لوصية أُستاذه بعدم الخوض في لُجج السياسة ؛ لأنها عديمة النفع وأنَّ إثمها أكبر من نفعها، مما جعله يُخفف منها ويلتفت إلى القضايا الإجتماعية التي تُحيط بواقعه المعاصر.

وهذا لا يعني أنَّ تفسيره قد اختفت فيه الأمور السياسية، بل ظهر ذلك بعد أن استقل في كتابة التفسير، إلاَّ أنَّ الصبغة الغالبة على التفسير هي الصبغة الاجتماعية.

الثاني: حاجة الناس إلى من يُعلمهم ويُرشدهم الطريق الحق في ظل ذلك الواقع المرير الذي يشوبه الظلم، والكذب، والنفاق، والفساد... مما جعله يتصدى لهذه القضايا في تفسيره، ويكشف للناس زيفها وبهرجها، ويدعو إلى مافيه الخير والفلاح.

ومن ذلك حديثه عن الظلم والاستبداد عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٥)



حيث ذكر أنَّ من معاني التولي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ أي أصبح والياً، وأخذ يُفسد ويستبدُ ظلماً وعدواناً، فقال: "... والقول الآخر: إن المراد بتولّى صار والياً له حكم ينفذ، وعمل يستبد به، وإفساده حينئذ يكون بالظلم مخرّب العمران وآفة البلاد والعباد، وإهلاكه الحرث والنسل، يكون إمّا بسفك الدماء والمصادرة في الأموال، وإمّا بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم، وفوائد مكاسبهم، ومن انقطع أمله انقطع عمله إلاّ الضروري الذي به حفظ الذمام، ولا حرث ولا نسل إلاّ بالعمل.

وقد شرحت لنا حوادث الزمان وسير الظالمين هذه الآية، فقرأنا وشاهدنا أنّ البلاد التي يفشو فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقلّ ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان، ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتى لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه، فيكون بأس الأمة بينها شديداً، ولكنها تذل وتخنع للمستعبدين لها، وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبر، ما فيه ذكرى ومزدجر " (١).

وقد كشف لنا هذا التنــزيل العجيب ما كان يُعانيه الناس في ذلك الزمان من الظلم الشديد – من قِبَلِ الولاة – الذي يسوده القتل والاستبداد، وإهلاك الحرث والنسل، فينتج عن ذلك الجهل وفساد الأخلاق والأعمال.

ولَمَّا ذَكَر قوله تعالى: ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (المائدة: ٤٢) بيَّن أنَّ من معاني السحت عند السلف الرشوة (٢)، التي غصَّ بها واقعه المعاصر حتى عند من يطلبون العلم الشرعي – ولا حول

(١) تفسير المنار (٢/٢١٠).

(٢) يُنظر: تفسير الطبري (٨/٤٢٩ – ٤٣٤).



ولا قوة إلاّ بالله -، فاضطر إلى تنـــزيل الآية عليهم؛ لأنهم شابهوا أحبار اليهود الذين يأكلون السحت فقال: "... فإنَّ كثيراً ممن يعدّهم المسلمون من أحبارهم ورؤساء الدين فيهم، وكثيراً من حُكّامهم الشرعيين والسياسيين، يكذبون كثيراً، ويقبلون الكذب، ويأكلون السحت، حتى إنهم يأخذون الرشوة من طلبة العلم ليشهدوا لهم زوراً بأنهم صاروا من العلماء الأعلام، ويعطوهم ما يُسمونه (شهادة العالمية) كما يمنحهم حُكّامهم الرتب العلمية " (١).

ثُمَّ ذكر حادثةً دارت بين شيخه وبين أحد طلبة الأزهر تدل على صدق ما ذكر فقال: " وقد تجرأ بعض طلبة الأزهر مرّة على شيخنا الأستاذ الإمام، فعرض عليه ثلاثين جنيهاً ليساعده في امتحان شهادة العالمية ؛ لعلمه بأنه غير مستعد للامتحان ولا أهل للشهادة، فلم يملك الأستاذ نفسه من الانفعال أن ضربه ضرباً موجعاً، وقال: أتطلب مني في هذه السن أن أغش المسلمين بك لتفسد عليهم دينهم بجهلك بهذه الجنيهات الحقيرة في نظري، العظيمة في نظرك، وأنا الذي لم أتدنس في عمري حتى ولا بقبول الهدية ممن أنقذهم من الموت ؟ ولو كنت ممن يتساهل في هذا لكنت من أوسع الناس ثروة " (٢).

ولمّا ذَكَر قصة قوم لوط عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الأعراف: ٨١) ناسب أن ينـــزل هذه الآية الكريمة على ما يحصل في واقعه من ترك الرجال لأزواجهم والالتفاف نحو الصبيان والغلمان، كما هو الحاصل عند قوم لوط، حيث ذكر حادثة توضح هذا الأمر فقال: " حدثني تاجر أنه دخلت دكانه مرة امرأة بارعة الجمال فأسفرت عن وجهها فقام لخدمتها دون أعوانه، فلما رأته دهِشاً بروعة حسنها قالت له: انظر أتجد فيَّ عيباً ؟.

قال: إني لم أر مثلك قط !.

---

(١) تفسير المنار (٣٣٨/٦).

(٢) المصدر السابق (٣٣٨/٦).



قالت: ولكن زوجي فلاناً يتركني عامة لياليه كالشيء اللقا (هو الذي يُلقى ويُرمى لعدم الانتفاع به) في غرفة الدار، ويلهو عني في الدور السفلي بغلمان الشوارع حتى مساحي الأحذية، وهو لا يشكو مني شيئاً من خلق ولا تقصير في عمل ولا خيانة في مال ولا عرض، على أنه يعلم أنني أعلم هذا ولا يُبالي به ولا يحسب حساباً لعواقبه "(١).

ولم ينس قضية الحكم بغير ما أنزل الله، فقد كانت تمثل له هاجساً في ظل القوانين الوضعية التي يعيشها واقعه من قبل بعض من يتسمون بالمسلمين اسماً لا اعتقاداً ويقيناً وذلك عند قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة: ٥٠) حيث قال: " ومن العبرة في الآيات أنه يوجد من المسلمين الجغرافيين (٢) في هذا العصر، من هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم من أولئك الذين نزلت فيهم هذه الآيات، ومن ذلك أنهم يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، ويرون أن استقلال البشر بوضع الشرائع خير من شرع الله تعالى، على أنهم لا يعرفون أصول شرع الله ولا قواعده، بل يظنون أنه محصور في هذه الكتب الفقهية، التي أكثر ما فيها من آراء أفراد من المجتهدين المقلدين، فهم ينتقدون كثيراً منها بعدم موافقتها لمصالح الناس تارة ولأهوائهم تارة أخرى، يحتجون بضرب من الجهل على ضرب آخر " (٣).

ومن الصفات الحميدة التي حث عليها في زمانه هي الإعراض عن الجاهلين، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) حيث جعل منهم بعض صحفيي زمانه، وعدَّهم من شرار الجاهلين في عصره فقال: "وشرهم في هذا العصر مرتزقة صحف الأخبار المنتشرة، فإنَّ سفهاءَها هم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة، وقد قلَّ سفه الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر

(١) تفسير المنار (٤٨٥/٨).

(٢) **المسلمون الجغرافيون:** هم الذين يُعَدُّون مسلمين في إحصاء الجغرافية، وفي حقيقة الأمر هم مخالفون لأوامر الله تعالى حسب تصنيف الشيخ رشيد رضا.

(٣) تفسير المنار (٣٦٣/٦).



مشهور من القذع والبذاء في الهجو شيئاً مما نعهد في الصحف التي يُعبرون عنها بالساقطة، وكم من صحيفة قائمة ناهضة بالثروة، من ساقطة بالقلة، وإنما يجب الإعراض عن السفهاء لأهم لا يطلبون الحقّ إذا فقدوه، ولا يأخذون فيما يُخالف أهواءَهم إذا وجدوه، ولا يرعون عهداً، ولا يحفظون وداً، ولا يشكرون من النعمة إلاّ ما اتصل مدده، فإذا انقطع عاد الشكر كفراً، واستحال المدح ذماً " (١).

فهذه الأمثلة هي غيض من فيض، وقطرة من بحر هذا التفسير الذي فاض بها، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثانياً: التوحيد ونبذ البدع والخرافات: حيث كانت هذه القضية بارزةً في واقعه، فكثيراً ما يتعرض لنقد المعتقدات الباطلة التي يدعو إليها أصحابها من تقديسٍ للأولياء، ولزومٍ للمقابر، ودعاء وذبح لغير الله تعالى، مما جعله يتعرض لها كُلَّما وجد آيةً تتحدث عن ذلك فينـــزلها عليها.

ومـــن ذلك عندما ذَكَر قـــوله تعالى: ﴿ وَجَـٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَـٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) حيث قال: "والعبرة في هذا أنَّ للمسلمين الآن ذوات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة (ست المنضورة)(٢) وشجرة (الحنفي) بمصر (٣)، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار والآبار يعكفون عليها، ويطوفون حولها، ويُقبّلونها ويتمرّغون بأعتابها، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين، خاشعين داعين، راجين شفاء الأدواء، والانتقام من الأعداء، والغنى والثراء، وحبل العقيم، ورد الضالة، وغير ذلك من النفع وكشف الضر، خلافاً لنصوص كتاب الله عز وجل، ولكنهم لا يعلمون

---

(١) تفسير المنار (٩/٤٦٧).
(٢) **شجرة ست المنضورة:** شجرة في مصر كانت النساء العواقر يتبركن بها رجاء الحمل، وقد أُزيلت الآن.
(٣) **شجرة الحنفي:** شجرة كانت في جامع الحنفي بالقاهرة يُتبرك بها، وقد أُزيلت الآن.



أنهـــا تسمّى في اللغة العربية آلهة وأنَّ جلّ ما يأتونه عندها يسمّى عبادة، وأنّه شرك جلي لايُغفر. "(١).

فمن المعلوم أنَّ هذه الآية تتحدث عن بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كما كان عند غيرهم، فغضب عليهم ووصفهم بالجهل.

إلاَّ أنَّ هذه الآية لم تغب عن بال الشيخ رشيد رضا رحمه الله ورأى مناسبة تنـــزيلها على بعض المسلمين الجاهلين الذين اتخذوا آلهة من دون الله تعالى وإن لم يسموهم بذلك.

ومـــن البدع أيضاً ما كان يفعله بعض الناس في زمانه في المحافل التي يُقرأ فيها القرآن دون الاستماع أو التدبر، بل والانشغال عن ذلك بالأحاديث المختلفة، فما كان منه إلاَّ أن ينـــزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) على ما هو حاصل في واقعه (٢).

وذكر أيضاً تنـــزيلاً عند قولـــه تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٢١-٢٢) يُؤكد فيه القضية السابقة، ويُنكر على الذين يسمعون القرآن بقصد التلذذ بصوت القارئ ونغمه دون الاتعاظ والتدبر... وغيرها من أغراض السماع التي كان يتخذها بعض الناس في زمانه، فقال كلاماً طويلاً - أسوقه بطوله لنفاسته -: " وأما المسلمون في هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القارئ يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك

(١) تفسير المنار (٩/٩٨).

(٢) يُنظر: تفسير المنار (٩/٤٨٠).



التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات، ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالي رمضان، لأنَّ ذلك من شعائر أكابر الوجهاء، وإنما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم، وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول: الله الله، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لا معنى له، فإنما ينطق به إعجاباً بنغمة التالي، حتى إنهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء.

دعيت مرة إلى حفلة عرس فإذا أنا بقارئ يتلو بالنغم والتطريب، وبعض الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف المعتادة في مجالس الغناء، ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغني على سواء، وكان القارئ يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الإسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه.....

فلمــــا سمعت مكاء أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع، والمواعظ الصوادع، لم أملك نفسي أن صحت فيهم صيحة مزعجة، ووقفت على الكرسي الذي كنت جالساً عليه، ووبختهم توبيخاً شديداً، مبيناً لهم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن، ولا سيما أمثال هذه الآيات، وتلوت عليهم قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر: ٢١) فسكنوا وسكتوا إلاّ واحداً منهم أخذته العزّة بالإثم ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً، ويهمهم معتبراً متدبراً " (١).

ولَمَّا ذَكَر قوله تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الأنفال: ٤٩) أفاض في

(١) تفسير المنار (٩/٥٤٣).



تفسير التوكل، والحث عليه، ثُمَّ ذكر أفراداً من السلف الذين عُرِفوا بالتوكل على الله تعالى حق التوكل أمثال إبراهيم بن أدهم (١)، وإبراهيم الخواص (٢)، وشقيق البلخي (٣) وغيرهم.

ثُمَّ شرع في ذكر أمثلة من واقعه لأناس توكلوا على الله تعالى، وهذا العمل هو عين التنـــزيل، ومنها قوله: " ومثل عناية الله تعالى بالمتوكلين عليه في تسخير الأسباب الشريفة لهم ما وقع لشيخنا الأستاذ الإمام أيام كان منفياً في بيروت، قال لي: جاءني فلان من أصدقائي المصريين المنفيين يوماً، وقال إنه توفي والده، وأنه لا بد له من العناية اللائقة به في تجهيزه، وليس في يده ما يكفي لذلك، قال الشيخ: وكنت قبضت راتبي الشهري من المدرسة السلطانية لم أعط منه شيئاً للتجار الذين نأخذ منهم مؤنة الدار، فنقدته إياه كله لعلمي بحاجته إليه كله، ووكلت أمري وأمر أسرتي إلى الله تعالى، فلم يمر ذلك النهار إلا وقد جاءتني حوالة برقية بمبلغ أكبر من راتب المدرسة، كان ديناً لي قديماً على رجل أعياني أمر تقاضيه منه، وأنا فيها ممتعاً بما تعلم من النفوذ، وكتبت إليه بعد سفري مراراً أتقاضاه منه مستشفعاً بعذر الحاجة حتى يئست منه، فهل كان إرساله إياه في ذلك اليوم بتحويل برقي إلا تسخيراً منه تعالى بعنايته الخاصة ؟ " (٤).

(١) **هو**: إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، يُكنى أبا إسحاق العجلي، وقيل التميمي البلخي، أحد الأعلام المشهورين بالزهد، توفي سنة (١٦١هـ).
يُنظر: سير أعلام النبلاء (٧/٣٨٧)، الوافي بالوفيات (٥/٣١٨).

(٢) **هو**: إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، يُكنى أبا إسحاق، أحد شيوخ الصوفية بسامراء، وممن يُذكر بالتوكل وكثرة الأسفار، وله كتب مصنفه، توفي في الرَّي سنة (٢٩١هـ).
يُنظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/٤٩٣)، صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/٩٠).

(٣) **هو**: شقيق بن إبراهيم البلخي، يُكنى أبا علي، من مشايخ خراسان، أحد الأعلام المشهورين بالزهد، توفي سنة (١٥٣هـ).
يُنظر: وفيات الأعيان (٢/٤٧٥)، سير أعلام النبلاء (٩/٣١٣).

(٤) تفسير المنار (١٠/٣١ - ٣٢).



ثالثاً: موقفه من الاستعمار والحضارة الغربية: وقد عاش رحمه الله فترةً كانت تعج بالظلم والاستبداد، لا سيما من قبل المستعمر الأجنبي تجاه الدول الإسلامية الذي أكل الأخضر واليابس، ولم يُبق إلا الجهل والتخلف.

ولذلك لم يترك هذا الأمر، بل استطاع توظيفه في تفسيره من خلال تنـــزيل بعض الآيات المناسبة عليه.

ومنهـــا قولـــه تعـــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٢) حيث تكلم عن التغرير بزخرف القول فقال: "والتغرير بزخرف القول قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان ولا سيما شياطين السياسة ارتقاء عجيباً، فإنهم يخدعون الأحزاب منهم والأمم والشعوب من غيرهم فيصورون لها الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، بتغيير الأسماء وتزيين أقبح المنكرات، وإنَّ من الشعوب غراراً كالأفراد، تلدغ من الجحر الواحد مرتين بل عدة مرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار " (١).

وعند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٥٦) أخذ يشكو الاستعمار الحاصل في بلاد المسلمين من قبل دول الكفر وما يعيثون فيها من الفساد والاستعباد والإذلال للمسلمين فقال: " على هذه القاعدة - أي الفساد - قام بناء الاستعمار الإفرنجي في العالم، فكل دولة أُوروبية تستولي على شعب من الشعوب، تعنى أشد العناية بإفساد أخلاقه، وإذلال نفسه، واستنـــزاف ثروته، وكل ما تعمله في بلاده من عمل عمراني، كتعبيد الطرق، وإصلاح ري الأرض، فلأجل توفير ربحها منها، وتمكينها من سوق جيوشها التي تستعبد بها أهلها، وقد قرأنا في هذا العام مقالات لسائحة أميركانية طافت

(١) تفسير المنار (٨/١٠).



كثيراً من المستعمرات الأوربية في الشرق الأقصى، وصفت إذلال المستعمرين فيها للأهالي بنحو جرّهم لعرباتهم، والدوس على رقابهم وظهورهم، وإفساد أنفسهم وأجسادهم بإباحة شرب سموم الأفيون والكحول (الخمور الشديدة السم)، وسلب أموالهم بوسائل نظامية - فذكرت ما تقشعر منه جلود المؤمنين، وتشمئز نفوس الرحماء المذبين، ومن ذا الذي يستغرب منهم هذا بعد أن علم ما أقدموا عليه في حرب بعضهم لبعض في بلادهم (أوربة) من القسوة والتخريب والتدمير ؟

فهم يروون أن قتلى هذه الحرب بلغت عشرة ملايين شاب والمشوهين المعطلين من الجراح زهاء ثلاثين مليوناً، وأن نفقات التدمير قدرت بخمسمائة ألف مليون جنيه إنجليزي، وهي لو أنفقت على إصلاح كل ممالك المعمورة لكفت " (١).

ويظهر من خلال هذا النص تلك المعاناة التي كان يُعانيها الشيخ رشيد ومن معه من العلماء الذين يستشعرون قضايا الأمة وما هي فيه من الذل والاستعباد، مما جعله رحمه الله يستخدم التنـــزيل لِما هو مناسبٌ لواقعه المرير ؛ تنفيساً وتنبيهاً للأمة مما هي فيه، لتتدبر كلام ربها وتعتبر بما فيه، حتى تتجنب مصير من سبقها من الأمم التي خالفت أمر الله تعالى.

ولَمَّا سرى الاستعمار في جسد الأمة، وأخذ يُغير مجرى كيانها وعزها، تأثر الناس واغتروا بتلك الحضارة الجديدة التي غزتهم من كل صوب وجانب، وفي كل مجال من مجالات الحياة، حتى دخلوا جحر الضب الذي دخله غيرهم.

وقد أشار الشيخ رشيد رحمه الله إلى بعض صور التأثر والانبهار التي أصابت المسلمين من الحضارة الغربية.

ومثـــال ذلك حديثه عن نكاح الكافرات الأجنبيات وعشقهن عند قولـــه تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا

(١) المصدر السابق (٨/٤٣٣).



تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ (البقرة: ٢٢١) حيث قال: " وقد حدث بعد ذلك أن فُتِنَ كثيرٌ من الشبان المصريين بنساء الإفرنج، فتزوّجوا بهنّ فأفسدن عليهم أمورهم الدينية والوطنية، واضطر بعضهم إلى الطلاق، وغَرِم كثيراً من المال، ومنهم رجل غني قتلته امرأته الفرنسية وجاءت تُطالب بميراثها منه، وقليل منهم من اهتدت به زوجه وأسلمت، وقد سرت العدوى إلى المسلمات، فمن الغنيات منهنّ من تزوجنّ بمن عشقن من رجال الإفرنج بدون مبالاة بالدين الذي لا تعرف منه غير اللقب الوراثي، وقد عظمت الفتنة وقى الله البلاد شرّها، ولن يكون إلاّ بتجديد التربية الإسلامية وإصلاح الحكومة " (١).

وعندما ذَكر قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (النساء: ٢٥) علَّق على معنى المسافحات والمتخذات أخدان وأنهما من الزنا، ثُمَّ نَزَّل هـذا المعنى في الآية على مـا كان في واقعه مـن اتخـاذ المسلمين للأخدان والخليلات فقال: " وهذان النوعان من الزنا معروفان الآن وفاشيان في بلاد الإفرنج والبـلاد التي تقلـد الإفرنج في شرور مدنيتهم كمصر والآستانة وبعض بلاد الهند " (٢).

(١) تفسير المنار (٢/٣٠٠).

(٢) تفسير المنار (٥/٢٣).



رابعاً: موقفه من بعض علماء عصره: وقد شنَّ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا حملة قوية على بعض علماء زمانه الذين يستغلون مصالحهم من خلال عباءة الدين، فيأكلون أموال الناس بالباطل، ويزيدوهم ظلماً وجهلاً.

حيث نقل عنـــد قولـــه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ٧٩) كلاماً لأستاذه فقال: " قال الأستاذ الإمام: من شاء أن يرى نسخة ممّا كان عليه أولئك اليهود فلينظر فيما بين يديه فإنّه يراها واضحة جليّة، يرى كتباً ألفت في عقائد الدين وأحكامه حرّفوا فيها مقاصده وحولوها إلى ما يغرّ الناس ويمنّيهم ويفسد عليهم دينهم، ويقولون هي من عند الله، وما هي من عند الله، وإنّما هي صادّة عن النظر في كتاب الله والاهتداء به، ولا يعمل هذا إلاّ أحد رجلين: رجل مارق من الدين، يتعمد إفساده ويتوخّى إضلال أهله، فيلبس لباس الدين، ويظهر بمظهر أهل الصلاح، يخادع بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول.

ورجل يتحرّى التأويل ويستنبط الحيل ليسهّل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه.

ثُمَّ ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه المسلمون الآن. ذكر وقائع للقضاة والمأذونين وللعلماء والواعظين، فسقوا فيها عن أمر رهم، فمنهم مَنْ يتأول ويغترّ بأنه يقصد نفع أمّته، كما كان أحبار اليهود يفتون بأكل الربا أضعافاً مضاعفة ليستغني شعب إسرائيل، ومنهم من يفعل عامداً عالماً أنه مبطل، ولكن تغرّه أماني الشفاعات والمُكفرات " (١).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ

(١) تفسير المنار (١/٣١٤).



لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٨) "ومن هؤلاء الموهمين باعة التولات (١) والتناجس (٢) والتمائم (٣)، وكذا العزائم (٤) وختمات القرآن، والعدد المعلوم من سورة (يس) أو بعض الأذكار، وقد بلغ من هُزْءِ هؤلاء بالدين أن كان بعض المشهورين منهم يبيع سورة (يس) لقضاء الحاجات، أو لرحمة الأموات يقرؤها مرّات كثيرة، ويعقد لكلّ مرّة عقدة في خيط يحمله، حتى إذا ما جاءه طالب ابتياع القراءة وأخذ منه الثمن بعد المساومة، يحّل له من تلك العقد، بقدر ما يطلب من العدد، ذكر هذه الواقعة الأستاذ الإمام في الدرس، وقد كنّا نسمع عن رؤساء بعض النصارى نحو هذا في بيع العبادة التي يسموها القداديس (٥) فنسخر منهم، حتى علمنا أنّنا قد اتّبعنا سننهم شبراً بشبر، حتى دخلنا جحر الضبّ الذي دخلوه " (٦).

---

(١) **التِّوَلات**: جمع توَله - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخفَّفاً - وهو شيء يصنعونه، يزعمون أنه يُحبِّب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.
يُنظر: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن ص (١٤٩).

(٢) **التناجس**: شيء كانت العرب تفعله كالعِوَذَة تُدفع بها العين.
يُنظر: لسان العرب (٦/٢٢٦).

(٣) **التمائم**: جمع تميمة، وهي تعاويذ يلبسها الإنسان أو يعلقها لاعتقاد أنها تدفع الآفات والمقادير، وتطرد الشر وتحقق الشفاء من الأمراض.
يُنظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (٢/١٠٢١).

(٤) **العزائم**: جمع عزيمة، وهي الرُقى التي يُستعان فيها بغير الله.
يُنظر: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد ص (١٤٧).

(٥) **القداديس**: جمع قُدَّاس، وهو ذبيحة جسد ودم المسيح يقدمهما النصارى على الهيكل تحت شكلَي الخبز والخمر.
يُنظر: المنجد في اللغة والأعلام ص (٦١٢).

(٦) تفسير المنار (٢/١٦٨).



وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٥) " وأكبر وجوه العبرة فيها ما نراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين، الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله، والإخلاد إلى الأرض، واتباع أهوائهم، وتفانيهم في إرضاء الحُكَّام وإن كانوا مُرتدين، والعوام وإن كانوا مبتدعة خرافيين، وهم فتنة للنابتة العصرية تصدهم عن الإسلام، وللعوام في الثبات على الخرافات والأوهام، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاهم فيما لا يُطلب إلاَّ من الله تعالى والطواف بها والنذر لها وغير ذلك. ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم " (١).

وخلاصة القول: إنَّ تفسير المنار من أوائل التفاسير – في العصر الحديث- التي اعتنت بقضية التنـــزيل ؛ إذ أن صاحب التفسير الشيخ رشيد رضا رحمه الله كان يُعطيها مثار عنايةٍ واهتمامٍ بالغ، خاصةً في النواحي الاجتماعية التي أعطت التفسير لوناً تميز به عن غيره.

(١) المصدر السابق (٩/٣٦٣).



الفصل الثاني

عبد الحميد بن باديس وتفسيره (مجالس التذكير)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة موجزة عن حياة ابن باديس.

المبحث الثاني: منهج ابن باديس في تنـــزيل الآيات على الواقع.

المبحث الثالث: أبرز القضايا في عصر ابن باديس وتنـــزيل الآيات عليها.



المبحث الأول

ترجمة موجزة عن حياة ابن باديس (١)

عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس الصنهاجي، ولد في قسنطينة إحدى مدن الجزائر سنة (١٣٠٨هـ - ١٨٨٩م)، من أُسرة معروفة بالعلم والجاه والثراء.

حفظ القرآن الكريم ثُمَّ اختار طريق العلم، فأسلمه والده إلى الشيخ حمدان الونيسي (٢)، فرباه على العلم والفضل والأدب، وأوصاه بالابتعاد عن الوظائف، وقراءة العلم للعلم لا للرغيف.

تزوج سنة (١٩٠٤م)، وأنجب ولداً أسماه إسماعيل، حفظ القرآن وحضر العلم، ثُمَّ توفي وهو صغير، ولم يُنجب غيره.

وارتحل إلى جامع الزيتونة في تونس سنة (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م) لطلب العلم، وتتلمذ على صفوة علمائه أمثال العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وكان لهذا فضل تكوينه الأدبي واللغوي، والشيخ محمد الخضر حسين، وغيرهم من أفاضل علماء جامعة الزيتونة.

وقد تخرج منها سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) بشهادة عليا (التطويع)، ثُمَّ سافر إلى الحج في نفس السنة، والتقى في المدينة النبوية بشيخه المُهاجر حمدان الونيسي، والشيخ

---

(١) تُنظر ترجمته في: الأعلام (٣/٢٨٩)، ومعجم المؤلفين (٢/٦٦)، ومعجم المُفَسرين (١/٢٥٩)، وعبد الحميد بن باديس العالم الرباني، للدكتور مازن مطبقاني، وقد تَمَّ نقل هذه الترجمة بتصرف من ترجمة الدكتور توفيق محمد شاهين لابن باديس في مقدمة تفسيره ص (٥).

(٢) **حمدان الونيسي**: عالم من زعماء الحركة الإسلامية في الجزائر، هاجر إلى الحجاز سنة (١٩٠٨م) واستقر بالمدينة النبوية يُدرِّس بالمسجد النبوي، توفي سنة (١٩٢٠م).
ينظر: صراع بين السنة والبدعة لأحمد حماني (٢/٢٣١).



البشير الإبراهيمي، وتدارسوا وضعية الجزائر وضرورة إنشاء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

ثُمَّ زار في طريق عودته لبنان وسوريا ومصر، وأجازه الشيخ محمد بخيت المطيعي[1] بشهادة العالمية من الأزهر الشريف.

جهود ابن باديس الإصلاحية:

كانت إمكانياته كبيرة، وجهوده عظيمة، فأعطى الجزائر الكثير، واكتفى بالقليل قوتاً ومتاعاً، ومن جوانب جهوده ما يلي:

١- أنشأ معهداً علمياً يطرح فيه دروسه الشرعية من تفسير وشرح حديث وعقائد وفقه وأصول ونحو وصرف وبلاغة وأدب وما إلى ذلك. حتى أخرج من خلاله جيلاً من العلماء العاملين، كان لهم الأثر الواضح في توعية الناس وإرشادهم نحو الخير.

٢- أصدر العديد من الصحف والمجلات ومنها: (المنتقد)، و (السنة)، و (الصراط)، و (الشريعة)، و (البصائر)، و (الشهاب).
وكان قوياً في الحق، ولم يطق الاستعمار ذلك، فعطل كل صحيفه، وبقيت الشهاب طويلاً حتى جاءت الحرب العالمية الثانية.

٣- أسس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، وانتُخب رئيساً لها طول حياته، تقديراً لخدماته وجهوده.

٤- أسس جمعيات أخرى منها: (جمعية التجار المسلمين)، و (الميتم الإسلامي) وهي عبارة عن جمعية لرعاية الأيتام، وكذلك (جمعية الكشافة الإسلامية).

٥- أسس النوادي في المدن لنشر الثقافة والتربية الدينية والوطنية.

---

(١) **محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي:** مفتي الديار المصرية في وقته، ومن كبار فقهائها، ومن مؤلفاته: أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام، توفي بالقاهرة سنة (١٣٥٤هـ).
يُنظر: الأعلام (٦/٥٠).



مؤلفاته:

أُثر عن ابن باديس رحمه الله قوله: " شغلنا تأليف الرجال عن الكتب "، مما جعله مُقلاً في التصنيف، إلاَّ أنَّ ما خَلَّفَه فيه يدل على سعة علمه واطلاعه وقوة تأصيله.

وكان الاستعمار يحرق كل مجلة يعثر عليها إبان الثورة، أو كتابات عربية، ومن ثَمَّ فقد ضاعت كتابات كثيرة لابن باديس، غير أنَّ بعض الغيورين والمحبين دفن بعض هذه المجلات في التراب، وبعد سبع سنوات ونصف كشف عنها، فبقي البعض، وأكلت الأرضة والأتربة والطين البعض الآخر.. غير أنَّ المجلات الباقية وفيها آثاره الباقية يُمكن أن يُستخلص منها ما يلي:

١- تفسيره المُسمى بـ (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، وقد طبع سنة (١٩٦٤م).

٢- عقيدة التوحيد من القرآن والسنة، وقد طبع سنة (١٩٦٤م)، ويُسمى أيضاً بـ (العقائد الإسلامية).

٣- من الهدي النبوي، وقد طبع سنة (١٩٦٥م).

٤- رجال السلف ونساؤه، وقد طبع سنة (١٩٦٥م).

٥- مجموعة كبيرة من المقالات السياسية، والاجتماعية، والخطب، جمعها الدكتور عمار الطالبي، وطبعت سنة (١٩٦٨م).

وفاته:

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، لقي عبد الحميد بن باديس ربه في ٨ ربيع الأول سنة (١٣٥٩هـ) وفق ١٦ إبريل سنة (١٩٤٠م) في مدينة مولده قسنطينة ودفن بها إثر مرضٍ قصيرٍ لم يطل به، فرحمه الله تعالى وأغدق عليه شآبيب المغفرة والرضوان.



المبحث الثاني

منهج ابن باديس في تنزيل الآيات على الواقع

تأثر ابن باديس رحمه الله في التفسير بمدرسة محمد عبده، التي قامت على التجديد في الطرح، وكتابة التفسير بروح العصر.

ولهذا وصف البشير الإبراهيمي رحمه الله ابن باديس بأنَّ إمامة التفسير في العالم الإسلامي قد انتهت إليه بعد رشيد رضا (١).

وأحب أن أُمهِد لهذا المبحث قبل الدخول فيه بذكر قصة التفسير الباديسي الذي وصل بعضه إلينا، وقد ذكرها صديقه ورفيق دربه الشيخ البشير الإبراهيمي إثر حادثةٍ دارت بينه وبين ابن باديس حيث قال الإبراهيمي: " ولا أنسى مجلساً كُنَّا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة من زياراته لي، وكُنَّا في حالة حُزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم، فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه.

فقلت له: ليس لإكماله إلاَّ أنت !.

فقال لي: ليس لإكماله إلاَّ أنت !.

فقلت له: حتى يكون لي علم رشيد، وسعة رشيد، ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد.

فقال لي واثقاً مؤكداً: إننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يُغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت " (٢).

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي (٢/٢٥٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٥٢).



ولكن الشواغل وقصر الأمل قد حال بين هذا التفسير الذي وعِدَت الأمة به، حيث طار بعضه أدراج الرياح، ودفن الآخر في صدور الرجال الذين استمعوا له - خمساً وعشرين سنة في الجامع الأخضر بقسنطينة بين العشائين - ولم يُقيدوه فعاب عليهم الزمن بترابه وأحجاره، مما دعا البشير الإبراهيمي إلى إطلاق زفرة أسفٍ على الفرصة التي ضاعت وهو يقول: " لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئاً منها، وضاع على الأمة كنـــز علم لا يقوَّم بمال، ولا يُعوض بحال، ومات فمات علم التفسير، وماتت طريقة ابن باديس في التفسير " (١).

ولم يبق منه إلاَّ أثارة من علم كان ينشرها ابن باديس رحمه الله في فواتح لأعداد مجلة الشهاب، وكانت تحمل اسم (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، فجُرِّدت من المجلة ونشرت في كتاب مُستقل، ظهر من خلاله طريقته في التفسير، ومنها تنـــزيل الآيات على الواقع.

هذا التنـــزيل الذي لم يكن معروفاً في الجزائر - آنذاك - فقد كانت مهمة القرآن قاصرةً بقراءته على الأموات وفي المناسبات، وبالتداوي به عن طريق التمائم، وختمه في رمضان وباقي الصلوات.

ناهيك عن العلماء الذين قصروه لخدمة مذاهبهم ونحلهم الكلامية والفقهية ونحوهما مما يُؤدي بالمُفَسر منهم إلى أن يبقى يدور حول النظريات بعيداً عن الواقع المعاش، وكأن لا صلة لكتاب الله بهذا الواقع أبداً، وكأنه أنزل إلى فترة مضت وانقضت.

حتى جاء ابن باديس فجَدَّد النظرة إلى القرآن، وجعله منهجاً للحياة، وسبيلاً إلى الوقاية والنجاة مما يشوب الأمة من النوازل والبلاءات، حيث انطلق إلى تنـــزيل الآيات على ما يجري في واقعه المعاصر، فيُشخص من خلالها الأمراض والانحرافات، ويُقوِّم بمعالجة الواقع، واستشراف المستجدات، وبهذا تتحقق هداية القرآن للناس فيسترشدوا وتصلح أحوالهم.

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/٢٥٣).



ومن ذلك قوله رحمه الله: " إنَّ القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلاَّ الزمن " (١).

وقوله: " وقد أُثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد ؛ يعنون أنه آت، وأنَّ الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يُعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه " (٢).

وقوله أيضاً: " نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين " (٣).

وكان لقضية التنـــزيل منهجٌ قد اتخذه ابن باديس وهو كالآتي:

١- أنه انطلق في تأصيل قضية التنـــزيل من خلال مسألتين من مسائل علوم القرآن:

أحدها: أنَّ من حِكَم نزول القرآن منجماً هي نزوله حسب الوقائع والأحداث حيث ذكر رحمه الله بعد شرحه لهذه الحِكمة حظ المسلمين من العمل بها فقال: " أنْ نقرأ القرآن ونتفهمه، حتى تكون آياته على طَرَف ألسنتنا، ومعانيه نُصْبَ أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننـــزلها عليها كما كانت تنـــزل على الأحوال والوقائع.

فإذا حَدَثَ مرضٌ قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه.

وإذا عَرَضَت شبهةٌ أو وَرَدَ اعتراض، طلبنا فيه الرد والإبطال.

وإذا نَزَلَت نازلةٌ طلبنا فيه حكمها وهكذا نذهب في تطبيقه وتنـــزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا " (٤).

---

(١) مجالس التذكير ص (٣٧٧).

(٢) المصدر السابق ص (٣٧٧).

(٣) المصدر السابق ص (١٤٦).

(٤) المصدر السابق ص (١٨١).



الأخرى: مسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

فكان رحمه الله إذا فسَّر آيةً لها سبب نزول، لا ينسى أن يُنبه على أنَّ هذا السبب لا يقصر حكمها على من نزلت فيه بل يعم غيره لعموم لفظها، كما فعل عند قـــوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (مريم: ٩٦) ؛ إذ بعد أن بيَّن أنها نزلت في حق السابقين الأولين من المؤمنين الذين كانوا مبغوضين من أهل مكة، أوضح عموم حكم الآية بعنوان في مطلع كلامه فقال: (عموم الوعد لعموم اللفظ)، ثُمَّ كان من كلامه الآتي: "... فيعمُ ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح وهم أولياء الله و ﴿ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٤).

وبعد أن بيَّن سبب الود وسبب الجعل عنوَن قائلاً: (بشارة وتثبيت)، ثُمَّ قال: "في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وأنصار السنة ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يُؤذيهم من كان يحميهم ويُدافع عنهم..." (١).

وهكذا كان يفعل في بقية الآيات التي ورد فيها سبب نزول، ونفس الشيء في الآيات التي وردت بخصوص قريش أو اليهود أو المنافقين، فإنه كان دائم التنبيه إلى أنَّ ذلك لا يقتضي حصر حكمها فيمن جاءت فيهم، بل يتعدى إلى غيرهم ممن يشتركون معهم في الوصف كقوله: " فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع... " (٢).

ووضع عنواناً بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ (الفرقان: ٥٢) فقال: (تعميم) ثُمَّ أردَفَ قائلاً: " كما لا تجوز طاعة

(١) مجالس التذكير ص (٣٤١).

(٢) المصدر السابق ص (١٧١).



الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم ؛ لأنَّ الجميع فيه مخالفة لدين الله وكما يُجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير، كذلك يجاهد به أهل المعصية ؛ لأنه كتاب الهداية لكل ضال والدعوة لكل مرشد، وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من التنبيه بالأعلى على الأدنى لاشتراكهم في العلة وهي المخالفة " (١).

٢- أنه كان يُطلق على التنـــزيل لفظ (التطبيق) سوى موضعين:

أولاهما: عندما ذَكَر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٠) حيث فسَّر الآية ثُمَّ بيَّن حال المسلمين في زمانه مع القرآن، فجعل عنواناً جانبياً فقال: (تنـــزيل)، ثُمَّ أخذ ينـــزل الآية على واقعه وما يكون فيه المسلمون من هجرهم للقرآن، وبيان بعض صور هجره ومنها الآتي (٢):

١- بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة.

٢- وبين القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجـــرناه، واقتصرنا علـــى قـــراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوارٍ من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها.

---

(١) مجالس التذكير ص (١٨٨).

(٢) المصدر السابق ص (١٧٣ - ١٧٤).



٣- ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه...

فهذا تنـــزيل واضح وصريح استحق أن يُطلق عليه ابن باديس لفظ (التنـــزيل)؛ لأنه رأى صوراً جديدة لهجر القرآن قد طرأت على واقعه المعاصر لم تكن موجودة قبل ذلك.

وأما الموضع الآخر: فهو عندما ذَكَر قوله تعالى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) حيث وضع عنواناً جانبياً فقال: (أحكام وتنـــزيل) (١)، والسبب في اقتران التنـــزيل بالأحكام ؛ لأن الآية تتضمن أحكاماً ينبغي بيانها، وكذلك تنـــزيلاً على واقعه المعاصر فناسب الاقتران.

٣- أنه كان يبدأ بتفسير الآية ثُمَّ ينـــزلها على ما كان مناسباً في واقعه، فيضع عنواناً في قائمة المقطع فيقول: (تطبيق)، أو (استنتاج وتطبيق)، أو (تطبيق وتحاكم).

ثُمَّ يختم التنـــزيل- غالباً - بنصيحة أو علاج أو إرشاد أو تحذير.

ومثـــال ذلك ما فعله عند قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الإسراء: ٥٧) حيث شرع في تفسير الآية ثُمَّ بيَّن ما يكون في واقعه مما يفعله بعض الناس من الدعاء لغير الله تعالى، فعنون في قائمة المقطع (تطبيق)، ثُمَّ قال: " نعرف كثيراً من الصالحين - رحمهم الله تعالى - قد شُيدت عليهم القباب، ونُذرت لهم النذور، وقُصدوا لقضاء الحاجات، ودُعوا في المهمات.

وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم، وبالغ فيه المستغلون له، ممن ينتمون إليهم، فهم - إن شاء الله تعالى - بُرآء من إثم ذلك كله، وإنما إثمه على فاعليه ".

(١) مجالس التذكير ص (٣٢٥).



وبعد هذا التطبيق حذّر الناس من هذا العمل فعنون (عبرة وتحذير)، ثُمَّ قال: "يأتي يوم القيامة أولئك الذين يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد الله الصالحين، ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم، فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم، ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب.

فما أمرّ خيبتهم يومذاك !! وما أعظم حسرتهم ! ويا لها من عِبرة لقومٍ يعقلون !.

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة، وهذا الموقف المُخزي، فبادروا إلى توحيد الله بالدُّعاء الذي هو مخ العبادة.

واقتصروا في جانب الصالحين، على محبتهم والترضية عليهم، وسؤال الرحمة لهم، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، ولا تعظموهم بما لا يكون إلا لله رب العالمين" (١).

٤- أنه استخدم التنـــزيل غير المباشر أو ما يُسمى بالتلميح، وخاصة أثناء حديثه عن الاستعمار الفرنسي الذي استولى على بلاده، حيث أني لم أجده قد صرَّح بهم في تفسيره، وإنما يأتي بهم على سبيل التلميح والتعريض، ولعل السبب في ذلك الخوف من محاربته، أو منعه من الكتابة والتعليم، فينتفي بهذا العمل مشروعه الإصلاحي ودعوة الناس إلى المنهج الإسلامي الصحيح.

ومثال ذلك عندما ذَكَر قوله تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: ٢١)، حيث نقل تفسير ابن عباس رضي الله عنه في نوع العذاب الذي سيُعاقب به الهدهد وهو نتف ريشه (٢)، ثُمَّ وضع عنواناً في قائمة المطلع يقول فيه: (توجيه واستنباط)، ثُمَّ كتب تحته ما يلي: " ليس في الآية ما يفهم خصوص

(١) مجالس التذكير (١٢١).

(٢) يُنظر: تفسير الطبري (١٨/٣٣)، وابن أبي حاتم (٩/٢٨٦٢)، وزاد المسير (٣/٣٥٧)، والدر المنثور (١١/٣٤٩)، وقول ابن عباس هو قول الجمهور.



نتف الريش من لفظ العذاب الشديد، وإنما فهم ابن عباس رضي الله عنه وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار،فإنَّ نتف ريشه يُعطِّل خاصية الطيران فيه، فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد عُلِم أنَّ المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حَرَم إنساناً - فرداً أو جماعة - من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية، وحَوّله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذابٌ شديد، وأي عذابٍ شديد " (١).

ويُلمح من هذا التنـــزيل تعريضه بدور الاستعمار الفرنسي الذي غزا بلاده، وكيف كان دوره في سياسة التعليم حيث حارب العلم وأبعده عنهم حتى جعلهم شعباً جاهلاً بأمور الحياة، لولا أنَّ الله تعالى قد رحمهم بعالم الجزائر وزعيمها ابن باديس، فأحيا قلوبهم بالعلم والإيمان.

٥- أنه استخدم التنـــزيل العكسي، كما جاء ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٦٨) حيث كانت الآية الكريمة تتحدث عن صفات عباد الرحمن، التي منها إفراد الدعاء لله تعالى وعدم الإشراك معه أحداً من خلقه.

ولَمّا كانت هذه الصفة منتفيةً عند بعض الناس في زمانه، أراد أن يُبيّن ذلك، فاستخدم التنـــزيل العكسي لِيُنبه النـــاس ويُحذِّرهم مـــن هـــذا العمل فقال رحمه الله: " ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس (ياربي والشيخ)، (ياربي وناس ربي)، (ياربي والناس الملاح).

(١) مجالس التذكير ص (٢٦٩).



وهذا من دعاء غير الله، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده، وأنف الشرك راغم " (١).

ومن خلال هذا العرض يتضح لنا اهتمام ابن باديس رحمه الله بقضية التنـــزيل ؛ لأنها من العوامل المهمة لربط الناس بكتاب ربهم سبحانه، وأنها السبيل الوحيد لعلاج قضايا الأفراد والمجتمعات مما يشوبها من النوازل والبلاءات، ولذلك كان دائماً ما يقرر هذه الحقيقة ويدعو إليها فيقول: " أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طَرَف ألسنتنا، ومعانيه نُصْبَ أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننـــزلها عليها كما كانت تنـــزل على الأحوال والوقائع... " (٢).

وأحب أن أُنبه إلى أن هذا التنـــزيل الذي استخدمه ابن باديس لم يكن إلاَّ شيئاً يسيراً مما وصلنا من تفسيره، فكيف لو تمَّ الوقوف على تفسيره كاملاً !!.

(١) المصدر السابق ص (٢٢٢).

(٢) مجالس التذكير ص (١٨١).



المبحث الثالث

أبرز القضايا في عصر ابن باديس، وتنزيل الآيات عليها

قامت حياة ابن باديس رحمه الله على التربية والعلم وجهاد الاستعمار وأرباب الابتداع بالقلم واللسان، ولهذا قام أغلب التنـــزيل على هذه القضايا الملامسة لشغاف الواقع المعاصر.

لذا فإني أُورد بعضاً منها، وأُبيّن كيف استخدم ابن باديس تنـــزيل الآيات عليها.

أولاً: موقفه من الحضارة الغربية.. فلم يكن يرفضها أو يأخذها بكاملها، بل يأخذ ما صفا ويدع منها ما كدر.

وقد شنَّع على بعض المسلمين الذين انبهروا بهذه الحضارة، فاستماتوا بمحاكاتها، والافتتان بها، ومن ذلك:

عندما مرَّ على قولـــه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠) أفاض في تفسير الآية ثُمَّ عنوَنَ قائلاً: (تطبيق)، ثُمَّ قالَ: " كما يُفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا - معشر الأمة الإسلامية - قد فُتنَّا بغيرنا من أمم الغرب، وفُتنوا هم أيضاً بنا:

فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية، ولكن حيثما كنَّا - إلا قليلاً - لسنا سُعداء لا في مظاهر تَدَيُّنِنَا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصّرح بأنّه من صميمه.

وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذل والاستعباد يرثي لها الجماد.

فلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلا من نظر منهم بعين الإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام، فكنَّا فتنة عظيمة



عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام، فكنَّا - ويا للأسف - فتنة للقوم الظالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عزٍ وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء، حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز، إلا من نظر بعين العلم فعرف أنَّ كل ما عندهم من خير، هو من عندنا في ديننا وتاريخنا، وأنَّ ذلك هو الذي تقدموا وسادوا به، وأنَّ ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأنَّ ضرره فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يُتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه، فيغدو لا يُفرق بين اللب والقشور " (١).

ونجـــده أيضـــاً قد شنَّع على من ينـــزل الآيات في غير موضعها تخبطاً منه وانبهاراً بتلك الحضارة الغربية، وسمَّى ابن باديس هـــذا العمل تحريفاً، ففي قوله تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) أخذ في تفسير الآية ثُمَّ كتب (تحذير من تحريف)، فقال: " رأى بعض النَّاس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض - وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان – فقالوا: إنَّ رجال هذه المدنية هم الصَّالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أنَّ المراد بـــ ﴿ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ في الآية: الصَّالحون لعمارة الأرض.

فيا لله للقرآن، وللإنسان، من هذا التحريف السخيف !! كأنَّ عمارة الأرض هي كلُّ شيء، ولو ضلَّت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدِّدت بأعظم حربٍ تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض

(١) مجالس التذكير ص (١٦٧ - ١٦٨).



وأفسدت الإنسان، ثُمَّ يريد هذا المحرف أن يطبِّق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليُصلح العمران.

فأمَّا الصَّالحون، فهو لفظ قرآني كما قدَّمناه، وقد شرف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله: ﴿ عِبَادِيَ ﴾ فحَمْلُه على الصَّالحين لعمارة الأرض تحريفاً للكلم عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين"(١).

ثانياً: محاربته للاستعمار الغربي، حيث وقف أمامه بكل ما أُوتي من قوة وشجاعة، حريصاً على تحرير البلاد من أقدام الطغاة الذين يريدون تدنيسها بالكفر والفساد، يُجاهدهم بقلمه ولسانه.

ونجد هذا الكلام قد ألمح إليه عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) حيث رجَّح أنَّ أعظم الفتنة التي تُصيب المُخالفين لأمر الله تعالى هي أن يُسلَّط عليهم سلطان جائر (٢) فقال رحمه الله: "... فإنه إذا جار السلطان - وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة، والتصرف في شؤونها - فسد كل شيء: فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك...

هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين - بحسب ظواهره — دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء !!.

حقاً إنَّ أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها " (٣).

(١) مجالس التذكير ص (٣٤٩ - ٣٥٠).

(٢) وهو رأي التابعي الجليل جعفر الصادق رضي الله عنه.
يُنظر: تفسير القرطبي (١٢/٢٩٥).

(٣) مجالس التذكير ص (٣٣٨).



وهذا النَّص خير شاهدٍ على تألم ابن باديس رحمه الله من ذلك السلطان الجائر الذي ليس من جنسهم وهو الاستعمار الفرنسي الذي أفسد البلاد، وأهلك الحرث والنسل.

ثالثاً: محاربته للمبتدعة، حيث كان جهاده ضدهم جزءاً من جهاده العام لنصرة الأمَّة، والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين (١):

أحدهما: ما أدخلته على الدين من انحراف وضلال وبدع وخرافات.

والآخر: لأنها أصبحت تسير في ركاب الاحتلال، فهي إذاً جزءٌ من الاستعمار.

ففي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٥٦) نجده قد ترجم في قائمة المقطع بقوله: (تطبيق)، ثُمَّ بيَّن آثار البدع والطرقية في بلاده على عامَّة النَّاس، وأنهم غارقون في لُججها فقال: " إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامَّتنا غارقاً في هذا الضلال.

فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضُّر، وجلب النَّفع، وتيسير الرِّزق، وإعطاء النَّسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون.

ويذهبون إلى الأضرحة التي شُيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدُّقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميّتهم، بأنهم خُدَّامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم ؟؟

وقد يهددونهم بقطع الزِّيارة، وحبس النذور.

وتراهم هنالك في ذلٍ وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم !!.

فأعمالهم هذه من دُعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين، وإن لم يعتقدوها عبادة ؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم.

---

(١) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني ص (١٠٨).



فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضَّلال " (١).

ولمّا ذَكَرَ قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ (الفرقان: ١)، نجده قد حلّق في تحليل لفظ ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ ، وأنَّ الله سمَّى كتابه بذلك لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل، وأنه القول الفصل بين كل متنازعين يدعي كل منهما أنه على الحق فيما هو عليه من عقد، أو قول، أو عمل.

وأنه سبيلٌ لأن يتخذه الناس طريقاً للتفريق بين السنة والبدعة.

وقد ضرب على هذا مثالاً وهو ما يكون في واقعه من انقسام الناس - خاصةً العلماء منهم - إلى طائفتين سُنية وبدعية.

فمن قرأ القرآن وتأمله فإنه يستطيع أن يحكم بين هاتين الطائفتين، وأيهما التي تسير وفق المنهج الصحيح.

ولذلك نجده قد ترجم عنواناً في قائمة المقطع فقال: (تطبيق وتحاكم) ليجعل الناس في مقام الحُكم بين هاتين الطائفتين، فقال: " في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين، يتنازعان خطَّة الهداية والنَّذارة والتَّذكير.

ولكل منهما - في سلوكها للقيام بتلك الخطة - سبيل.

وكل منهما تدَّعي أنها على الصواب، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد.

فرأينا أن نطبِّق فصْل الفرقان عليهما، وننظر كيف يفرِّق ما بينهما ومن هي المصيبة أو المخطئة، وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النـــزاع بينهما بحكمه.

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطئ، وصواب المصيب بها، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه.

(١) مجالس التذكير ص (١١٩).



فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه.

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة، ثُمَّ نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى:

يذكرون من يدعوهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبي ﷺ - إلا قليلاً.

ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السَنة معلومة.

والطائفة الثانية:

يُذكِّرون الناس بالقرآن فيأمروهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثوهم على التمسك به والرجوع إليه.

ويدعوهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ (الحشر: ٧).

ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً.

والله تعالى يقول في الحال الأول: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ ﴾ (ق: ٤٥) وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس.

ويقول تعالى في الحال الثاني لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ۝٥٧ ﴾ (الفرقان: ٥٧)... ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يتبع من الدعاة: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ (يس: ٢١).

ومن المهتدون ؟

هم المتبعون للنبي ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (الأعراف: ١٥٨) واتباعه بالسنة لموضوعنا هو اتباعه في طريق



دعوته الخلق إلى الله.

وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن، ويُذّكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً.

بان - والحمد لله - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما... " (١).

رابعاً: شكواه من قضية الإسراف التي عمت بها بلاده وطمَّت، لا سيما في أمور الولائم والمآتم، ونجد هذا جلياً واضحاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الفرقان: ٦٧) حيث شرع في تفسير الآية ثُمَّ نزَّلها على ما كان في واقعه، معنوناً لهذا التنـــزيل قوله: (تطبيق) ثُمَّ قال: "حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها، الذي يُؤدي إلى التقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشر يجر الشر، والإثم يهدي إلى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها، خصوصاً في المآتم، حقق الله الآمال.

وثَمَّ نوع آخر موجود في غالب القطر، ويكثر في بعض الجبال.

وهو أنَّ بعض المأمورين من شيوخ الطوائف، يأتون بثُلَّةٍ من أتباعهم، فينـــزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت، ويُصبح معدماً فقيراً مديناً، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويُمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم.

وشر ما في هذا الشر أنه يُرتكب باسم الدين، ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين:

(١) مجالس التذكير (١٥٥ - ١٥٧).



فأما إذا جاء وقت شد الرِّحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدث هنالك عن أنواع السرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات " (١).

والخلاصة أنَّ ابن باديس قد بنى تفسيره هذا لإنقاذ الأمة مما هي فيه من القضايا المتنوعة في عصره التي تُصادم روح الشرع الحنيف، فيوجد لها الحل الناجع، والدواء الشافي من خلال كتاب الله تعالى ؛ إذ أنه – بحق – يُعتبر رائداً من رواد قضية التنـــزيل، وامتداداً لسلسلة هذه المدرسة المباركة التي تدعو إلى النظر في هدايات القرآن.

ومن خلال النظر في تفسير ابن باديس فإنه لم يرع انتباهي أيُّ مآخذ جوهرية في قضية التنـــزيل ؛ ولعل ذلك ناتجٌ عن قلة تراثه التفسيري – الذي وصلنا – الواقع في جزءٍ صغير، وفي آيات وسور محدودة.

(١) مجالس التذكير ص (٢١٨).



الخاتمة

بعد أن تمَّ بحمد الله تعالى الانتهاء من هذا البحث (**تنـزيل الآيات على الواقع عند المُفسرين – دراسة وتطبيق**)، أحببت أن أختمه ببعض النتائج والتوصيات. وهي الآتي:

فأمَّا النتائج العامة فمنها الآتي:

١- إنَّ القاعدة الرئيسة التي ينطلق من خلالها المعتنون بقضية التنـــزيل هي مسألة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

٢- إنَّ التنـــزيل ظهر في عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم خاصة بعد استشهاد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣- إنَّ التنـــزيل يتفاوت ظهوره من مكان وزمان لآخر ومن تفسير لغيره ؛ نظراً لأسباب كثيرة.

٤- إنَّ محمد عبده يُعتبر رائد التنـــزيل في العصر الحديث، حيث دعا إلى استثمار النصوص القرآنية وتنـــزيلها على الواقع، وتبعه بعد ذلك عددٌ من العلماء والمُفَسِّرين.

٥- إنَّ قضية التنـــزيل تُعتبر من قبيل القول بالرأي الذي طريقه القياس والتمثيل، فإن كان الرأي مذموماً رُدَّ وعُدَّ من التنـــزيل المذموم، وإن كان غير ذلك فإنه يُقبل بضوابط معينة.

٦- إنَّ التنـــزيل يتنوع بأنواعٍ عدة يمكن حصرها في اعتبارين:

الأول: أنواعه باعتبار التصريح والتلميح وهو على نوعين:

أ- تنـــزيل التصريح: وهو أن يُصَرِّح المُفَسِّر بأنَّ معنى هذه الآية حاصلٌ في زمنه وواقعه.

ب- تنـــزيل التلميح: وهو أن يُشير المُفَسِّر إلى أنَّ معنى هذه الآية حاصلٌ في زمنه وواقعه دون أنَّ يُصَرِّح بذلك بل يُورِده على سبيل التعريض والتلميح.



الثاني: أنواعه باعتبار الجزئية والكلية وهو على ثلاثة أنواع:

أ- تنـــزيل كُلي: وهو أن يأتي المُفَسِّر بآيةٍ وفي الواقع ما يُطابق معناها تماماً.

ب- تنـــزيل جُزئي: وهو أن يأتي المُفَسِّر بآيةٍ وفي الواقع ما يُطابق جُزءًا من معناها.

ج- تنـــزيل على ما يُخالف معنى الآية (تنـــزيل عكسي): ويستخدمه المُفَسِّر إذا وَجَدَ في واقعه أحوالاً حثَّ القرآن على خلافها أو العكس.

٧- أنَّ كونَ المُفَسِّر لم يتناول واقعه من خلال تفسيره فهذا لا يعني أنه مُنعزل عن معالجة واقعه ؛ بل لعله راجع إلى دوافع منهجية أو سياسية ونحو ذلك.

٨- أنَّ تفسير المنار ومجالس التذكير والظلال من أكثر التفاسير - حسب علمي - تناولاً لقضية التنـــزيل، ويتقدم هذه الثلاثة الظلال فهو تفسير الواقع.

٩- أنَّ قضية التنـــزيل ليست حلاً كاملاً لقضايا الأمة، إذ أنَّه أمرٌ نظري، وبيانٌ لمواطن التشابه بين النص والواقع، ولكن ينبغي أن تكون هناك مرحلةٌ أُخرى تأتي بعد التنـــزيل وهي العمل بما في القرآن، كما كان يفعله السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين، حيث كانوا يعيشون مع القرآن ويتنسمون روحه وعبيره، فيُطَّبقون ما فيه من الأحكام والتشريعات.

ولا أدلَّ على ذلك من قول أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله حينما قال: "حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْرَ آيات لم يُخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعَلَّمنا القرآن والعمل جميعاً" (١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٧٤).



وأُحِبُّ أن أختم هذه النتائج برائعةٍ ذهبيةٍ - أسوقها بطولها لِنفاستها - قد دبَّجتها يراعة الأستاذ: سيد قطب حول ضرورة العمل بالقرآن وأنَّ أحداثه تتكرر في كلِّ وقتٍ وزمن بل في كُلِّ لحظةٍ من لحظات الحياة حيث يقول رحمه الله: " إنَّ النص القرآني مُعَدٌّ للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب، ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ، معدٌّ للعمل في النفس البشرية إطلاقاً كلَّما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة.

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية، موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلى حركة حقيقية، في عالم الواقع وعالم الضمير.

إنَّ القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. وكفى.. إنما هو رصيدٌ من الحيوية الدافعة ؛ وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإنَّ الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ؛ ثم يقف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق.

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث " (١).

---

(١) الظلال (٥/٢٨٣٦).



وأمَّا التوصيات فمنها الآتي:

١- أنَّ أمر التنـــزيل غير مقصور على الآيات القرآنية فحسب، بل حتى على الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن ثمَّ فإني أُوصي بالكتابة حول هذا الموضوع وإظهار معالمه في مصنفات الأحاديث، ومدى اهتمامه عند المحدثين وشُرَّاح الأحاديث.

وحتى تتضح الصورة أكثر فإني أُحبُّ أن أذكر مثالاً وهو ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حينما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده... " (١) حيث نَزَّلَ الإمام النووي " هذا الحديث على واقعه تنـــزيلاً عكسياً، وهو يُبيِّن ظاهرة ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في واقعه المعاصر، ومن ذلك قولـــه: " واعلم أنَّ هذا الباب - أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قد ضُيِّع أكثره من أزمانٍ متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلاَّ رسومٌ قليلة جداً.... " (٢).

٢- حث العلماء الذين يُفَسِّرون كلام الله تعالى في خطبهم وأماكن التعليم وعبر قنوات البث الفضائي على الاهتمام بقضية التنـــزيل، حتى يربطوا الناس بكتاب رهم سبحانه.

وبعد..

فإنَّ هذا الموضوع مازال بكراً طرياً، يحتاج إلى مزيدٍ من العناية والاهتمام، وحسبي أني قد أتيت على بعض أطرافه ومسائله، ولعل الغد القريب يكشف لنا يراعةً تُظهرُ شيئاً من مكنوناته، فأسأله تعالى أن يغفر زللي وتقصيري ويختم لي بالصالحات.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم أجمعين.

وكتبه

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (نووي ١٨/٢) حديث رقم (٧٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢١/٢).



ثبت المراجع والمصادر

حرف الألف

١- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث – القاهرة، ط ٣، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

٢- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

٣- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله بن العربي (ت: ٥٤٣هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٤- أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار القبلة – جدة، ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م.

٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م.

٨- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، جمع الدكتور: محمد عمارة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٨م.

٩- الإكليل في استنباط التنزيل، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: د. عامر بن علي العرابي، دار الأندلس الخضراء – جدة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٠- أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار المنارة – جدة، ط ٥، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١١- آيات الأحكام في المغني لابن قدامة، د. ناصر بن سليمان العمران، مكتبة التوبة - الرياض، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.



حرف الباء

١٢- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، قام بتحريره: د.عمر بن سليمان الأشقر - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٣- بدائع التفسير، محمد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، جمع وترتيب: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي - الدمام، ط ١، ١٤١٤هـ.

١٤- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

١٥- بدع التفاسير، عبد الله محمد الصديق الغماري، مكتبة القاهرة - القاهرة، ط ١، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت:٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١هـ.

١٧- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحي الضبي (ت: ٥٩٩هـ)، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري — القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٨- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر - بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٩- بيضة الديك، يوسف الصيداوي، المطبعة التعاونية.

حرف التاء

٢٠- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جمع السيد محمد رشيد رضا، مطبعة المنار - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٤٤هـ.

٢١- تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام)، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٢- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون - تونس.



٢٣- تصويبات في فهم بعض الآيات، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٤- تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم)، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٥- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٦- تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود بن محمد البغوي (ت: ٥١٦هـ)، تحقيق: د. عثمان جمعة ضميرية وآخرين، دار طيبة - الرياض، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٧- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت: ٧٩١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٩- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، مكتبة النور العلمية - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣١- تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، محمد شلتوت، دار الشروق - بيروت، ط ٧، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٢- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٣٣- التفسير الكبير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية - بيروت.



٣٤- تفسير الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٥- التفسير اللُّغوي للقرآن الكريم، د. مساعد بن سليمان الطيّار، دار ابن الجوزي- الدمام، ط ١، ١٤٢٢هـ.

٣٦- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، تحقيق: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

٣٧- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس - الأردن، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣٨- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الأرقم - بيروت.

٣٩- التفسير والمفسرون، عبد القادر محمد صالح، دار المعرفة - بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤٠- تقريب التهذيب، ابن حجر، تحقيق: محمد عوّامه، دار الرشيد - سوريا، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤١- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٤٢- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، أبو الحجاج يوسف المزي (ت: ٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٤٣- التوسل أنواعه وأحكامه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٥، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٤- التيسير في قواعد علم التفسير، محمد بن سليمان الكافيجي (ت:٨٧٩هـ)، تحقيق: ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم - دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ.

حرف الثاء

٤٥- ثورة الإسلام، أحمد زكي أبو شادي، دار مكتبة الحياة - بيروت.



حرف الجيم

٤٦- جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت: ٢٩٧هـ) تحقيق: أحمد شاكر وآخر، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٧- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: محمد عزير شمس وآخر، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٠هـ.

٤٨- جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

حرف الحاء

٤٩- حصول التفريج بأصول التخريج، أحمد بن محمد الصِّدِّيق الغماري، مكتبة طْبريَّة - الرياض، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

حرف الخاء

٥٠- الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة - القاهرة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥١- خصائص القرآن الكريم، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، دار طيبة، الرياض، ط ٧، ١٤١١هـ.

٥٢- الخصائص الكبرى (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة - القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

٥٣- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

حرف الدال

٥٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر - القاهرة، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.



٥٥- دقائق التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن - دمشق.

٥٦- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري (ت: ٧٩٩هـ)، تحقيق: د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.

حرف الذال

٥٧- الذيل على طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن شهاب أحمد بن جب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، خرّج أحاديثه ووضع حواشيه: أبو حازم أسامة بن حسن، وأبو الزهراء حازم علي بهجت، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

حرف الراء

٥٨- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ١٩٨٥م.

٥٩- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث - القاهرة، ط ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

حرف الزاء

٦٠- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦١- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٢- زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، دار الكتاب العربي - بيروت.

٦٣- الزمان والمكان، أحمد بن الزبير الغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

حرف السين

٦٤- السنن، أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط ٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.



٦٥- السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: عزت عبيد دعاس وآخر، دار الحديث - بيروت، ط ١، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

٦٦- السنن، محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٧- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٦٨- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسس الرسالة - بيروت، ط ٨، ١٤١٢هـ.

حرف الشين

٦٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: ١٠٨٩هـ)، دار المسيرة - بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٧٠- شطحات مصطفى محمود في تفسيراته المعاصرة للقرآن الكريم، عبد المتعال الجبري، دار الاعتصام - القاهرة، ط ٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٧١- شكوى القرطبي من أهل زمانه، مشهور حسن سلمان، دار الكتاب الأثرية - الأردن، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

حرف الصاد

٧٢- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٧٣- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري (ت:٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٧٤- صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة - بيروت، ط ٩، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٧٥- صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني، محاضرة مصورة من أعمال الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٩١٨م.



٧٦- صفة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٧٧- صفحات من تاريخ تونس، د. محمد الحبيب بن الخوجة، تحقيق: حمادي الساحلي وآخر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٩٨٦م.

حرف الضاد

٧٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، دار مكتبة الحياة - بيروت.

حرف الطاء

٧٩- طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت.

٨٠- طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي (ت: ٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة، ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٨١- طبقات علماء الحديث، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت: ٧٤٤هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

حرف العين

٨٢- عبد الحميد بن باديس العالم الرباني. د. مازن صلاح مطبقاني، دار القلم - دمشق، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٨٣- العجاب في بيان الأسباب، أحمد بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دار ابن الجوزي - الدمام، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

حرف الغين

٨٤- غاية السول في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم، عمر بن علي ابن المُلَقن (ت: ٨٠٤هـ) تحقيق وتخريج: عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.



حرف الفاء

٨٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٢٥هـ)، دار الريّان - القاهرة، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٨٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، عناية: يوسف الغوش، دار المعرفة - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٨٧- فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت: ١٢٨٥هـ)، تحقيق: د. الوليد بن عبد الرحنم الفريان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف - الرياض، ط، ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٨٨- فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١١، ١٩٧٥م.

٨٩- الفَرق بين الفِرَق، عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت: ٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.

٩٠- الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ)، نقله إلى العربية: سلمان الحُسيني الندوي، دار البشائر الإسلامية.

٩١- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق - بيروت، ط ٢٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

حرف القاف

٩٢- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، محمد بن عبد الله بن العربي (ت: ٥٤٣هـ)، تحقيق: د. محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.

٩٣- قدوة الغازي، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت: ٣٩٩هـ)، تحقيق: عائشة السليماني، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٩٨٩م.

٩٤- قراءة نقدية في فكر محمد سعيد العشماوي والرد على افتراءاته، د. عمر عبد الله كامل، بيسان - بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.

٩٥- القرآن وقضايا الإنسان، د. عائشة عبد الرحمن، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٣، ١٩٧٨م.



٩٦- قضايا إنسانية في أعمال المفسرين، عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٨٠م.

٩٧- قواعد الترجيح عند المفسرين، د. حسين علي الحربي، دار القاسم - الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

حرف الكاف

٩٨- الكامل للجيب قاموس فرنسي - عربي، د. يوسف محمد رضا، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٩٤م.

٩٩- الكتاب والقرآن، د. محمد شحرور، الأهالي للطباعة والنشر - دمشق، ط ٤، ١٩٩٧م.

١٠٠- كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

حرف اللام

١٠١- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت.

١٠٢- لسان الميزان، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

حرف الميم

١٠٣- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١٢، ١٩٨١م.

١٠٤- مباحث في علوم القرآن، د. مناع خليل القطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢٦، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠٥- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (تفسير ابن باديس)، عبد الحميد بن محمد بن باديس (ت:١٣٩٥هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٠٦- مجاهد المفسر والتفسير، د. أحمد إسماعيل نوفل، دار الصفوة - القاهرة، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٠٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد.



١٠٨- المحـــرر الوجيز في تفسير الكتـــاب العزيز ، عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هــ)، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، مطابع قضالة - المغرب، ط ٢، ١٤٠٣هــ - ١٩٨٢م.

١٠٩- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هــ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٩٢هــ.

١١٠- مدخل إلى القرآن والحديث، د. عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هــ - ١٩٩٩م.

١١١- مدخل إلى ظلال القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار - عمَّان، ط ٢، ١٤٢١هــ - ٢٠٠٠م.

١١٢- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة - القاهرة، ١٤١٢هــ - ١٩٩٢م.

١١٣- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي (ت: ٦٦٥هــ)، تحقيق: د. طيـــارآلتي قولاج، دار وقف الديانة التركي - أنقرة، ط ٢، ١٤٠٦هــ - ١٩٨٦م.

١١٤- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هــ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١١هــ - ١٩٩٠م.

١١٥- مُطابقة الاختراعات العصرية لِمَا أخبر به سيّد البريَّة، أحمد بن محمد الصِّدِّيق الغماري، مكتبة القاهرة - القاهرة، ط ٧، ١٣٩٨هــ - ١٩٧٨م.

١١٦- معترك الأقران في إعجـــاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هــ)، عناية: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٨هــ - ١٩٨٨م.

١١٧- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت: ٦٢٦هــ)، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٨- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤١٤هــ - ١٩٩٣م.

١١٩- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هــ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت، ١٤٢٠هــ - ١٩٩٩م.



١٢٠- معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض للثقافة - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٢١- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، د. مساعد سليمان الطيّار، دار ابن الجوزي - الدمام، ط ١، ١٤٢٣هـ.

١٢٢- مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد، دار الدعوة - الكويت، ط ١، ١٤٠٥هـ.

١٢٣- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت: ٣٣٠هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٢٤- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، د. مساعد بن سليمان الطيار، دار المُحَدِّث - الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

١٢٥- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: د. عدنان محمد زرزور، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٢٦- ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت: ٧٢١هـ)، تقديم وتحقيق: د. محمد الحبيب ابن الخوجه، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢٧- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٢٨- من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة، المستشار عبد الله العقيل، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٢٩- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار المعرفة - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٣٠- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق - بيروت، ط ٢٩.

١٣١- المنهج الحركي في ظلال القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمّار - عمّان، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.



١٣٢- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٤، ١٤١٤هـ.

١٣٣- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زياد بن خليل الدغامين، دار البشير - عمَّان، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٣٤- الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، عناية: مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان - الخبر، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٣٥- موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين. د. خليل أحمد خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.

١٣٦- الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد: وحدة الدراسات والبحوث في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط ٤، ١٤٢٠هـ.

١٣٧- الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، عناية: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث - القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٣٨- موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، شفيق بن عبد بن عبد الله شقير، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

حرف النون

١٣٩- النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت.

١٤٠- النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار طيبة - الرياض، اعتنى به وخرَّج أحاديثه: عبد الحميد الدّخاخني، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٤١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة - القاهرة.

١٤٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقّري التلمساني (ت:١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٤٣- النوازل الفقهية وأثرها في الفتوى والاجتهاد، سلسلة ندوات ومناظرات أُقيمت في جامعة الحسن الثاني بالمغرب، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية.



حرف الواو

١٤٤- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، عناية: س. ديْدرينغ، فرانز شتايز بفيسبادن، ط ٢.

١٤٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خَلِّكان (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.

١٤٦- ولاة مصر، محمد بن يوسف الكندي، تحقيق: د. حسين نصّار، دار صادر- بيروت.

الرسائل العلمية:

١- الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة، عامر علي العرابي، رسالة ماجستير مُقدمة إلى جامعة أُم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤٠٩هـ.

٢- تفسير القرآن العظيم، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت: ٦٦٠هـ)، رسالة دكتوراه قام بتحقيق جزءٍ منها الدكتور: بدر الصميط، مقدمة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٤٢١هـ - ١٤٢٢هـ.

٣- تفسير القرآن العظيم، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت: ٦٦٠هـ)، رسالة دكتوراه قام بتحقيق جُزءٍ منها الدكتور: يوسف الشامسي، مقدمة إلى جامعة أم القرى سنة ١٩٩٨م.

المجلات:

١- مجلة التجديد الماليزية، عدد ٤، ربيع الآخر، سنة ١٤١٩هـ.

٢- مجلة الرسالة المصرية، عدد ٤٢٠، سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.

٣- المجلة العربية، عدد ١٧٥، شعبان، ١٤١٢هـ.

٤- مجلة مواكب تصدر عن الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة، عدد ١٢، جمادى الأولى سنة ١٤٢٣هـ.

٥- مجلة كلية الشريعة بجامعة قطر، عدد ١١، سنة ١٩٩٣م.

٦- مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، عدد ٤٧، رمضان سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.





فهرس المحتويات





السيرة الذاتية



الاسم : عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله الضامر.

الجنسية: المملكة العربية السعودية، الأحساء،

مواليد : عام ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

الشهادات العلمية :

- بكالوريوس أصول الدين سنة ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية , فرع الأحساء .
- ماجستير في الدراسات القرآنية سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م من كلية الدعوة وأصول الدين التابعة لجامعة أُمِّ القرى بمكة المكرمة.

الخبرات العلمية :

عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

المؤلفات :

(١) تنـــزيل الآيات على الواقع عند المفسرين — دراسة وتطبيق .

(٢) التفسير الإذاعي للقرآن الكريم - مفهومه والمنهج الأمثل في عَرضِه، دراسة نُشرت في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية في جدة، العدد الأول، ربيع الآخر، سنة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

(٣) حركة التفسير في المملكة العربية السعودية.

dabdalaziz@hotmail.com



هذا الكتاب

هذه الدراسة ستكون في الآيات التي تحدثت عن القرآن الكريم المتضمنة هديه، وبيان ما اشتمل عليه من الخير والهدى، المبينة كذلك حال الناس مع القرآن، ...

كما أن هذه الدراسة قائمة على التحليل للآيات القرآنية التي تحدثت عن القرآن الكريم، وهذا الأمر من الأهمية بمكان في الدراسات البلاغية، فمهم جداً أن تُعنى الدراسات البلاغية بالجانب التطبيقي، فإن في ذلك ثباتاً للقاعدة في ذهن المتلقي، ونشاطاً لعقله، وتحريكاً له، وطرداً للسآمة والملل الذي قد يتسلل إليه بسبب التلقين والإملاء.